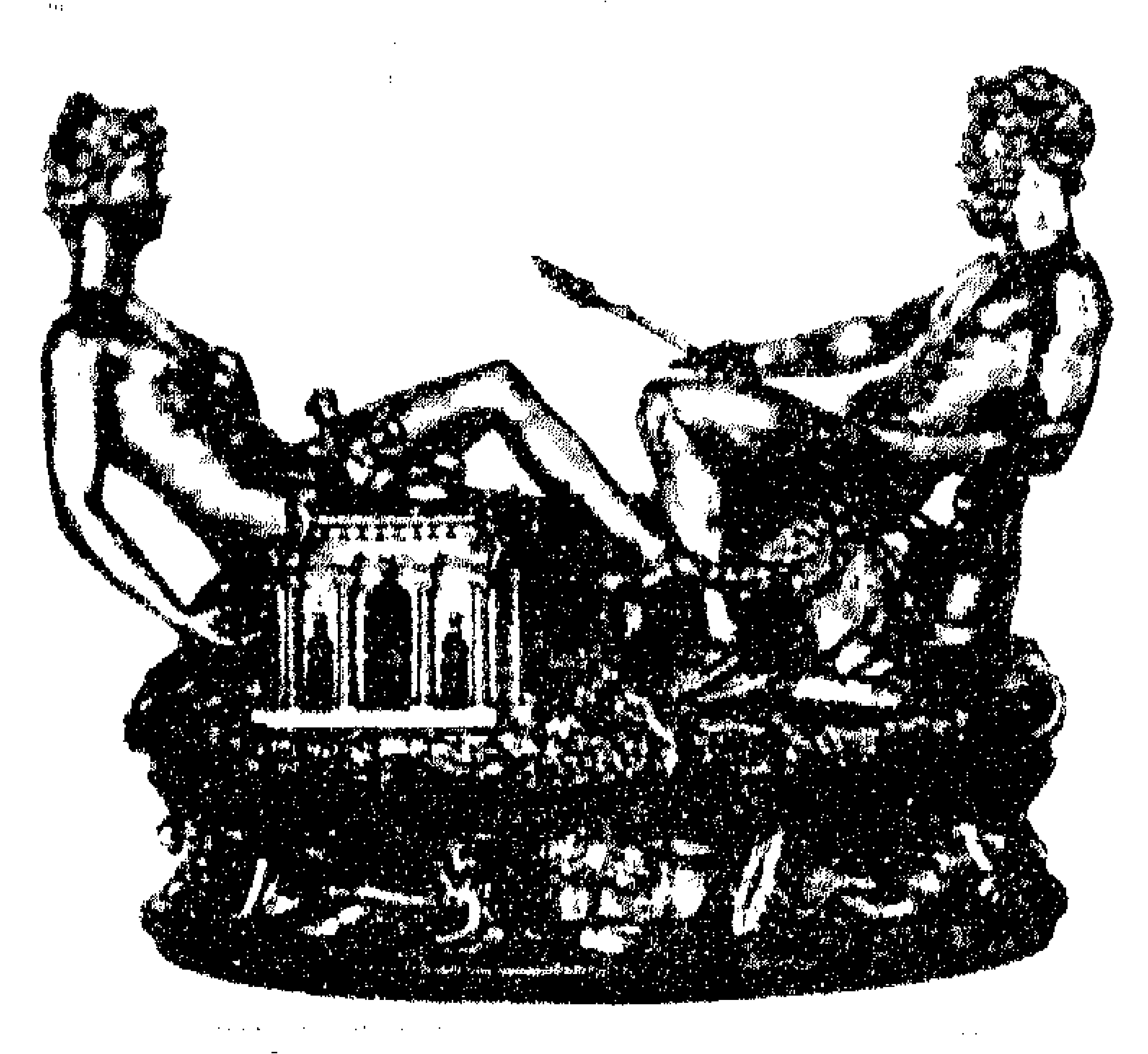


الرينسانس



مَلاَحة صنعها تشيليني للملك

فرنسا فرانسوا الأول حوالي ١٥٤٠

سلسلة « أعلام ومشاهير »
باشراف د رءوف سلامة موسى
بدار ومطابع المستقبل

اهداءات ٢٠٠١

المستشار/ رابح لطفى جمعة
القاهرة

الرينسانس

عن دراسات بلومب وهول وكلارك وبرونوسكي
وميشليه وڤازاري وچيوتو وغيرهم

دار ومطابع المستقبل
بالفجالة والاسكندرية
ومكتبة المعارف ببيروت

أوربا زمن الرينسانس

تمثل الفترة من منتصف القرن الرابع عشر حتى أواخر القرن السادس عشر الميلاديين ، فترة محددة وواضحة في تاريخ أوربا . فقد بزغت فيها قوات أقتصادية وثقافية جديدة ، كانت بمثابة البذور لتلك الثمار العصرية من الفلسفات والعلوم والآداب والفنون التي أينعت طوال القـرون التالية .

ومع أن هناك من يعجل ببداية فترة الرينسانس Renaissance إلى القرن الثاني أو الثالث عشر ، وهناك من يتأخر بها حتى بداية القرن السابع عشر ، فأن الاتفاق يكاد أن يكون تاماً على أن تلك الحركة قد ظهرت في أوربا خلال الأعوام المائة والخمسين التي حددناها . وعلى أن مدينة فلورانسا الأيطالية ، هي التي شهدت مولدها . ثم أنتشرت بعد ذلك في الدويلات والدوقيات الشمالية ، كأوربينو ومانتوا وفيرارا ، ثم في المدن الأيطالية الأخرى ، كميلانو وروما والبندقية . قبل أن تمتد إلى الممالك الأوربية الأخرى ، كفرنسا وهولندا وأنجلترا وألمانيا .

ويعود السبب في ظهور الرينسانس في هذه الفترة ، وفي ذلك المكان بالذات ، إلى أزدهار التجارة في أيطاليا خلال تلك السنين . وظهور مدن قوية ومستقلة . ووجود أنماط جديدة من المواطنين ، ميسورو الحال ، وبين أيديهم دعة وفراغ . مع معرفة هؤلاء المواطنين باللغة اللاتينية القديمة ، وبالقانون الروماني ، وأحساسهم العميق بالقيم الجمالية التي بعثها في نفوسهم الميراث الفني القديم ، وآثاره الظاهرة والمدفونة بين ظهرانيهم .

فالرينسانس - كما يقول ڤون مارتن - حضارة بورجوازية جديدة ، أخذت مكان طبقة النبلاء في قيادة المجتمع الأقتصادي الجديد . ونادت بالتغيير بدلاً من الأستقرار .

* * *

وكان سقوط القسطنطينية في ١٤٥٣ في أيدي الأتراك ، قد أدى إلى هجرة أعداد كبيرة من علمائها اليونانيين إلى أيطاليا . وكان على رأس هؤلاء العلماء مانيويل كريزولوراس Chrysoloras (١٣٥٩ / ١٤١٥) الذي هرب من القسطنطينية إلى البندقية في ١٣٩٥ . ثم دعاه الوزير الفلورانسي كولوتشيو سالوتاتي Salutati (١٣٣١ / ١٤٠٦) في العام التالي للمحاضرة في فلورانسا .

وقد بقي كريزولوراس في فلورانسا ، ولم يبارحها بعد ذلك ، رغم رحلاته الكثيرة في أنحاء أيطاليا وأوربا . حتى توفي بها في ١٤١٥ . وكان قد إنضم إليه فيها قبل ذلك ، زميلاه بيساريون Bessarion

(١٤٠٣ / ١٤٧٢) وجيمستس بليثو Bletho (١٣٥٥ / ١٤٥٢) .
اللذين كانا قد حضرا إلى أيطاليا من القسطنطينية أيضاً ، لحضور جلسات المجمع المسيحي التي عقدت في فيرارا . ثم أنتقلت هذه الجلسات ، بفضل الوزير سالوتاتي ، من فيرارا إلى فلورانسا . وعندما أنتهت جلسات المجمع ، بقي بيساريون وبليثو مع عدد آخر من العلماء اليونانيين في فلورانسا ، ولم يعودوا بعد ذلك إلى بلادهم .

وجدير بالذكر ، أن حركة الطباعة كانت قد بدأت تنتشر في المدن الأيطالية المختلفة منذ حوالي ١٤٥٠ . ومع أن روما لم تفطن إلى أهمية الطباعة ، ولم تتعدد فيها المطابع ، فقد قامت بسرعة في كل من فلورانسا وميلانو عشرات المطابع . وأصبح في البندقية في نهاية هذا القرن الخامس عشر ٢٠٠ مطبعة . وقد أدى قيام المطابع إلى تبسيط شكل الكتاب ، بالأستغناء عن الزخارف والألوان التي كانت تزين المخطوطات . وإلى ظهور طبعات شعبية رخيصة وواسعة الأنتشار أطلق عليها أسم Aladine وتستطيع أن تشبع عطش المثقفين المحتاجين إلى هذه الأداة الضرورية والأساسية في الثقافة .

* * *

وليس من شك أن حركة الرينسانس في أوربا ، كانت - على ما قيل- ثورة في التفكير . وأن الغرض منها كان في البداية « إحياء » الآداب والفنون اليونانية والرومانية القديمة ، ومثاليات وقيم العالم

القديم . وكان الوزير سالوتاتي داعية للحريات . وقد كتب خطابات ومقالات كثيرة في مقاومة « الطغيان » . وكان تلميذاً لبترارخ (الذي سنتحدث عنه في الفصل التالي). وكان بترارخ صديقاً للأديب والشاعر جيوفاني بوكاشيو Bocaccio (١٣١٣ / ١٣٧٥) الذي ولد في سيرتالدو ، ونشأ في نابولي ، وأنفق جل حياته في فلورانسا . وقد أعتبر بوكاشيو - رغم تقدمه التاريخي - من مؤسسي حركة الرينسانس. وله أنتاج ضخم في الأدب والشعر . وقد وضع كتاباً صغيراً في تاريخ الفن ، أصبح بعد ذلك مرجعاً ثميناً لجميع فناني الرينسانس . كذلك وضع في أخريات حياته أناشيداً وترانيماً دينية راجت رواجاً كبيراً ، وأذاعت شهرته بين الناس . ولكن بوكاشيو أشتهر بعد وفاته بأقاصيصه، بأكثر مما أشتهر في حياته بأناشيده وترانيمه الدينية . وكان بوكاشيو من أوائل من ترجموا مؤلفات هومر . وقد تحدث في مؤلفاته عن «البعث» بمعني إحياء الأمجاد القديمة ، وبالذات الرومانية منها .

وقد أمتدح بوكاشيو على وجه الخصوص الرسام والمهندس الفلورانسي جيوتو ديه بوندون Giotto (١٢٦٦ / ١٣٣٧) الملقب بالعظيم . وكان جيوتو قد نشأ فلاحاً . ثم أكتشفه سيمابيه Cimabue (١٢٤٠ / ١٣٠٢) الذي لقب بأبي الفن الأيطالي ، وهو يرعى الأغنام ، ويرسم على الصخور . وقد وصف دانتي سيمابيه بأنه « كان وحيداً في ميدانه، حتى بزه فيه تلميذه جيوتو» . وقد ولد سيمابيه وعاش في فلورانسا .

ومات في بيزا . وكان يحافظ في رسومه على الأتجاه البيزنطي ، ويجيد أستخدام الضوء والمجموعات . ولايزال في فلورانسا عملين من أعماله الهامة : « جلال العذراء » و« صلب المسيح » . وفي الأوفيزي « المادونا والطفل ».

وكان يشارك سيمابيه الريادة قبل چيوتو ، النحات والمهندس أندريا بيزانو Pisano (١٢٩٥ / ١٣٤٩) الذي صب الباب الجنوبي للمعمدة ، وأتم بناء كامبانيلا (برج) الدومو بفلورانسا . ومن أهم أعمال بيزانو التي تركها ، رسومه القوية والصلبة على منبر كنيسة بيستويا .

وقد نحا چيوتو في أعماله إلى الناحية « الطبيعية». وأجاد أستخدام الضوء كأستاذه سيمابيه . وفي أعماله صلابة وقوة ، كما في أعمال بيزانو . وقد أعتبر من رائدي حركة الرسم الحديث . وقيل عنه أنه قد «بعث الحياة في نماذجه ، حتى أن الناظر لها يدور من حولها ، ويتذوقها، ويتعرف عليها » . وقيل أنه لم يكن له طوال الأعوام المائة التي تلته غير مقلدين إثنين .

وقد نشأ چيوتو وعمل في فلورانسا . وعمت شهرته جميع أنحاء أيطاليا . وقال عنه مؤرخ الفن چورچيو ڤازاري Vasari (١٥١١ / ١٥٧٤) الذي أشتهر في لوحاته بحسن تحريك مجموعاته ، وبألوانه الزاهية . والذي كتب تاريخاً للفن تناول فيه حياة أكثر من ٢٠٠ فناناً من فناني الرينسانس : « إن چيوتو ، وچيوتو وحدة ، هو الذي سار على

الدرب الصحيح ». ويلاحظ أن ڤازاري كان من جيل لاحق لجيل كثيرين ممن تحدث عنهم في تاريخه . وأن أكثر رواياته كان مما تواتر إليه عن معاصريهم .

وقد كتب بوكاشيو عن چيوتو :

« إن أعمال چيوتو قد أعادت الضوء إلى الفن القديم المدفون ، والفنانون العظام الذين صنعوه . وقد أعاد هذا الفن البهجة إلى عيون غير المتخصصين ، بدلاً من الفن القديم الذي قصد به إرضاء ذكاء المتخصصين ».

وقد قسمت مراحل حياة چيوتو إلى مرحلتين أساسيتين . الأولى حتى عام ١٣٢٠ ، وكان تأثير أستاذه سيمابيه عليه سافراً . ومن أهم أعماله خلال تلك الفترة ، مما بقي للآن في فلورانسا ، رسومه الدينية . ومن أهمها « صلب المسيح » ، إلى جانب « جلال العذراء » و « قتل سانت فرانسيس ». ومن أجمل لوحاته الواقعية «قبلة يهوذا للمسيح» . وفي المرحلة الثانية ، أتجه چيوتو إلى الهندسة ، فبدأ « أوبرا الدومو» و «كامبانيلا كاتدرائية فلورانسا». وقد أتم الأخير بيزانو ، كما ذكرنا . كما زين چيوتو قصر تاتي بفلورانسا .

بترارخ : مؤسس الرينسانس
وأول الأنســانيين

عندما قامت ثورة عام ١٣٠٢ في فلورانسا ، كانت عائلتا دانتي أليچيري Dante (١٢٦٥ / ١٣٢١) وفرانسيسكو بترارخ Petrarch (١٣٠٤ / ١٣٧٤) تنتيمان إلى حزب أمبراطور ألمانيا ، ذي الراية البيضاء . فلما هَزَم أنصار حزب البابا ، ذو الراية الحمراء ، أنصار حزب الأمبراطور ، طُردت عائلتيهما من المدينة . ولجأت العائلتان إلى أريزو ، على مبعدة حوالي ١٠٠ كيلو متر من فلورانسا ، مع الحكم بأعدامهم إن هم عادوا إلى المدينة . وقد ذهبت والدة بترارخ وأبنها فرانسيسكو بعد ذلك إلى أنيسيزا ، حيث ولدت شقيقه چيراردو . ثم أجتمع الولدان وأمهما برب العائلة في عام ١٣١٠ في بيزا وچنوا . ثم ألتحق والده ، سير بتراكو ، بخدمة البابا في روما . وأنتقل معه إلى منفاه في أڤينيون بفرنسا . وقد لحقت أسرة بترارخ عائلها في أڤينيون في ١٣١٢ . وسكنوا جميعاً قرية كاربنترا على مبعدة حوالي ٢٥ كيلو متراً من

أڤينيون .

وكان دانتي من أوائل الشعراء الذين كتبوا بالأيطالية ، وأنشأوا فيها قصائد ، مستخدمين اللهجة التوسكانية التي نشأ عليها في صغره ، وجاعلين منها لغة قومية رفيعة . ومع أن صنعته كانت حديثة ، فأن روحه ظلت قديمة ، وإرهاصاته هي إرهاصات العصور الوسطى . وأما بترارخ ، فهو « أول من قرأ المؤلفات الصحيحة للمؤلفين القدامى ببصيرة المستقبل ». وهو «مؤسس الرينسانس » و « أول الأنسانيين ».

* * *

ويقال أن دانتي قد بدأ كتابة كوميديته Commedia قبل طرده من فلورانسا في ١٣٠٢ . ويقال أنه قد بدأها بعد ذلك ، في حوالي ١٣٠٧. وأنه قد أنتهى منها في ١٣١٥ ، ماعدا الجزء الأخير الذي لم يتمه حتى قبيل وفاته . وإلى جانب الكوميديا ، كتب دانتي كتابه العاطفي La Vita Nuova الذي خلد فيه حبه لحبيبته بياتريس . وقد أصبحت بياتريس بعد ذلك ميعث خيالاته الروحية . والمرأة التي قادته الي « الجنة ».

وأما بترارخ ، فقد عاش في قرية كاربنترا إلى جوار أڤينيون ، حيث درس اللاتينية والفرنسية ، وأستمتع مع شقيقه چيراردو وبجمال الطبيعة الفائق . وهو يذكر زيارة له مع والده إلى منابع المياه المعدنية القريبة في ڤوكليز « المكان الذي أفضله على أي مكان آخر في العالم ».

وقد درس بترارخ مع شقيقه چيراردو المحاماة في جامعة مونبلييه الفرنسية ، ثم في جامعة بولونا الأيطالية . ولكنه لم يتكسب قط من مهنته . وكان يقول : كيف أعيش ببيع العدالة؟!. وحتى عندما توفي والده في ١٣٢٦ ، وظن أنه وشقيقه قد حرما ميراثه ، رفض مقاضاة غاصبيه . ولكنه كره أيطاليا والمحاماة . وألتحق مع شقيقه جيراردو بخدمة البابا في أڤينيون . وكان وقتها « طويلاً وأنيقاً ، ومزهواً بجماله وشبابه وملبسه . ويميل لونه إلى البياض ، وشعره إلى الحمرة . ويؤم المجتمعات ، ويلاحق الحسناوات ، ويجيد نظم الشعر ».

يقول بترارخ :

« أني أصحو في منتصف الليل ،

« وأترك منزلي في الفجر ،

« فأذهب إلى الحقول كي أفكر ، وكي أقرأ ،

« دافعاً عن عيني النوم ما أستطعت ،

« محافظاً على براءة الجسم ،

« ونقاء الروح ،

« وأمتياز السلوك .

« وأجوب طوال النهار ، الجبال القاحلة ،

« والسهول المنداة ،

« والكهوف الرطبة ،

« وحيداً إلا من أفكاري ».

وكان بترارخ يحب القراءة والكتابة . وقد أهتم بأفلاطون . وعمل مع بوكاشيو على ترجمة أعمال هومر إلى اللاتينية . وأحب شيشرون وبول وأوجسطين ، وعثر للأول على كتابات عديدة غير معروفة . وقد طالب بترارخ بأهمال أرسطو وتلاميذه . وقيل أنه كان يصحو طوال الليل ، ويجلس إلى مائدته ليكتب . وأنه كان يحب تقليب صفحات الكتب ، حتى ماكان منها باليونانية التي لايفهمها . فهو - كما يرى المؤرخون الحديثون - كاتب «محترف» ، يحب الكتابة والقراءة ، وملمس الورق ، والكتابة .

وقيل أنه لم يكن يؤمن بالخرافات . ولا يعتد إلا بالماديات . وأنه كان يستنكر التنجيم . ويقول : هل يمكن للأجرام السماوية أن تغير مجراها، وتنحرف عن قوانينها ، لتعطي نذرها للأنسان ؟. كلام فارغ .

وقد تقابل بترارخ في (٦ ابريل) عام ١٣٢٧ بحبيبة روحه لورا . وكان هذا خلال قداس في كنيسة سانت كلير . وكانت لورا سيدة متزوجة. فلم يفاتحها بترارخ يوماً بحبه . وظل بقية حياته يناجيها ، ويزفر زفراته الحارة عليها . مثلما فعل دانتي مع حبيبته بياتريس . ثم حاول بترارخ أن يفر من هذا الحب اليائس بالسفر إلى باريس ، وهولندا وألمانيا . وفكر في الذهاب إلى الهند والصين . حتى لقب بالسائح الأول « لأنه لم يكن يبغي بسفره الدراسة أو التجارة أو الوصف ، وإنما

الأستمتاع والنسيان» . ومع ذلك ، فهل عاشت لورا حقاً ، بلحمها وعظمها ودمها ، أو أخترعها بترارخ إختراعاً ؟ .

وقد أستقر بترارخ في النهاية ، وبعد أن فقد شقيقه چيراردو ، في منزل صغير في ڤوكليز ، على مبعدة حوالي ٣٠ كيلو متراً من أڤينيون . ومن هناك أخذ يجوب المناطق القريبة . ويتسلق الجبال « التي تكللها الثلوج ، وتختفي في سحبها رؤوس الأشجار ». ويصف « مياه بحيرة كومو الزرقاء ». ويصور ظهور الطيور في بداية فصل الربيع ، بعد إختفائها طوال الشتاء . وأنحدار مياه الثلوج على جوانب الجبال كالنافورات المعلقة في السماء .

وكان بترارخ إذا ما سئل عن مهنته أجاب : حدائقي .

وقد أستمرت أشعار بترارخ الغنائية ، التي كتبها بلغة أيطالية رصينة ، تذيع وتنتشر بين معجبيها . فيتغنى بها الناس في مجتمعاتهم وأحتفالاتهم ، حتى أصبح أسمه على كل لسان . وتوج في روما في ١٣١٤ بأكليل من الغار . ولكنه أخذ يتحول بعد ذلك إلى أغراض الشعر الأخرى ، التي ضمنها نظراته الفلسفية . وأخذ يقضي ، بعد وفاة لورا في ١٣٤٨ ، أكثر أوقاته في أيطاليا .

وقد أستقر بترارخ فترة قصيرة في بادوا . ثم أنتقل منها إلى فلورانسا ، ثم نابولي . ثم أخذ يجوب ، منذ ١٣٦١ ، أنحاء أيطاليا . إلى أن أستقر مرة أخرى في بادوا . وكان جسمه قد ضعف ، وصحته قد

سا مت . ولكنه ظل يردد : ليس هناك شيء أخف من القلم ، وأفعل في جلب السعادة ، لا لصاحبه وحده ولكن لكثيرين بعيدين عنه في المكان والزمان .

وقد تساءل في كتابه « حياة يوليوس قيصر » :

« من أنا ؟ . دارس علم؟. لا أظن . محب للطبيعة ؟. للوحدة؟. أرفه عن نفسي بأطلاق الكلمات تحت ظلال الأشجار؟. أخطط بقلمي فوق أوراق ، تحت شجرة غار صغيرة ؟. دائم السعي ، ولكن من دون أن أجني ثمرة ؟. مغرم بتحرير الخطابات ، من دون أن أبرز فى كتابتها ؟. متشوق للحقيقة ، غير منتمٍ لحزب من الأحزاب ؟. أنني كثيراً ما أخاف، لصعوبة القصد ، ولعجزي عن البحث ، ولتهيبي من الفشل ، وهرباً من الأخطاء ، أن أقع في الشك بدلاً من الحقيقة . وهكذا أصبحت فرداً في هذه المجموعة المتواضعة التي لا توقن بشيء ، ولا تتأكد من شيء ، وتشك في كل شيء ».

وقد توفي بترارخ في ١٩ يوليه عام ١٣٧٤ و « القلم في يده». ونُشر بعد وفاته كتابه « أسرار Secretum » الذي ضمنه أعترافاته في صورة حوار مع سانت أوجسطين . وفي الكتاب ، يلوم سانت أوجسطين بترارخ على حياة اللهو التي عاشها . ويؤنبه على سعيه وراء الشهرة ، ومناجاته اليائسة لحبيبته لورا. فإذا ما أصابه اليأس ، أنتابته نوبات التشاؤم . وسانت أوجسطين يقول له : تماسك . وأعد نفسك لنفسك . إن

جسم لورا قد أنهكته الأمراض . وأذبلته مرات الحمل والولادة المتكررة .

فيجيبه بترارخ : هذا حقيقي . ولكن لورا طهرت روحي من الأقذار ، ورفعت عيني إلى السماء .

فيقول له سانت أوجسطين : هذا كلام فارغ . فقد خَرَّبت حياتك، وصرفتك عن حب الرب إلى حب الأنسان .

ظهور الرينسانس في فلورانسا

أحس المؤرخ الفرنسي الواقعي ميشيليه في ١٨٥٥ ، بوقع نبضات الرينسانس . وأستخدم في التعبير عنه لأول مرة الكلمة الأيطالية ريناشيتا Rinascita بمعنى « الولادة الجديدة ». وقال ميشيليه أن الرينسانس كان « بداية أعـادة أكتشاف الأنسان للعالم ، وأكتشافه لنفســه ». وقد أستعار ميشيليه هذه الكلمات من مؤرخ الفن الأيطالي ڤازاري ، الذي أشرنا اليه . وكان ڤازاري قد أستخدم كلماته في الدلالة عما ظنه نهضة في كافة فنون أيطاليا في ذلك الوقت .

ثم جاء المؤرخ السويسري بيركهاردت ، فأستخدم كلمات سابقيه . وألف في هذا الموضوع كتاباً قائماً بذاته ، تتبع فيه تلك الحركة ، وأسماه « ثقافة الرينسانس في أيطاليا ». وقد أرجع بيركهاردت ظهور الرينسانس في أيطاليا ، من دون الأقطار الأوربية الأخرى ، إلى خلو تلك البلاد ، في ذلك الوقت ، من سلطة مركزية طاغية . إلى جانب قيام نظامها السياسي على دويلات ودوقيات مستقلة ومتباينة . وضعف

الأقطاع فيها . مما شجع نزعة الأبداع في الأفراد .

وقد سبق القول إلى أن حركة الرينسانس ، قد بدأت بالعودة إلى الآداب والفنون اليونانية والرومانية القديمة . ونادت بأستخدام لغة أيطالية رصينة ، بدلاً من اللهجات السوقية التي أنتشرت في إيطاليا طوال القرون الوسطى . وقد أعتبر لورانزو ڤالا Valla (١٤٠٤ / ١٤٥٧) اللغة اللاتينية القديمة « كبرى اللغات ». وألف كتابه « أناقة Elegantia » في تصوير جمالها وضبط قواعدها . وقال أن السعادة مطلوبة لذاتها . وأن الحياة السعيدة فضيلة مسيحية .

وكان ڤالا قد ولد في روما ، وتعلم ودرس في جامعات شمالي أيطاليا . ثم أصبح سكرتيراً للملك ألفونسو الخامس ملك نابولي ، ثم لبابا روما . ومن أهم أعماله في المنصب الأخير أكتشافه أن وثيقة «عطاء كونستانتين» التي قامت عليها السلطات الدينية البابوية على الأيطاليين كانت مزورة .

وقد نتج عن دعوى العودة للقديم في الرينساس الوليد ، أن أصبح كل قديم نفيس . وكل حديث أقل نفاسة - بالضرورة - من القديم . حتى أن مايكل أنجيلو (الذي سنتحدث عنه فيما بعد) قد دفن أحد تماثيله في الأرض فترة ، قبل أن يستخرجه ويبيعه للمعجبين به .

ومع أن العودة إلى أصول المؤلفات الأفلاطونية في بداية الرينسانس ، قد أدى إلى إهمال أرسطو . فأن أعماله ظلت تحظى بالعناية سنيناً أخرى

في بادوا ، بفضل بيترو بومباناتزي Pompanazzi (١٤٦٢ / ١٥٢٥) الذي أشتهر على وجه الخصوص بكتابه الذي أنكر فيه خلود الروح De Immortalitate Animae . وقد أصبح هذا الموضوع الذي أثاره بومباناتزي من الأهمية ، بحيث جعله البابا ليو العاشر سبب أجتماع مجمع خاص مسيحي في ١٥١٣ .

ولم تكن آراء أرسطو ، وأشهر تلاميذه وشارحيه في أوربا ، أبن رشد، تتفق دائماً مع أخبار الكنيسة الكاثوليكية . ولكن بومباناتزي كان يُدّرس كل منهما منفصلاً عن الآخر . ويسمي آراء الكنيسة الكاثوليكية بأسم « الحقيقة الدينية » . وآراء أرسطو وأبن رشد وتلاميذهما بأسم « الحقيقة الموضوعية ». وقد أدى هذا إلى التفريق بين الحقيقتين . وفي النهاية إلى بداية « التفكير الموضوعي »، ثم ظهور الأنسانية . فأن مدرس العلوم الأنسانية (كالقواعد والبلاغة والشعر والتاريخ والفلسفة والأخلاق) في أيطاليا منذ القرن السادس عشر ، قد سُمي بالأنساني Umanista . فلما تقدمت حركة الرينسانس ، وظهرت أهمية تلك العلوم في إحساس الأنسان بأنسانيته ، أشتق منها لفظ الأنسانية Humanism .

* * *

وكانت مدرسة فلورانسا من أولى المدارس التي أنحازت لأفلاطون ، وأنبتت بذرة الرينسانس . ويتساءل ڤازاري عن السبب في هذا ، ثم

يجيب : أن السبب هو سيادة روح النقد . فأجواء فلورانسا كانت تحرر العقول ، ولا ترضى بأقل من الأمتياز .

ولا شك أن السبب يكمن أيضاً فيما قيل عن « فردية » الفلورانسيين ، وأرتفاع شأن الأنسان عندهم . وفي سيادة الحرية داخل مدينتهم . وأستناد تلك الحرية إلى نظام سياسي وأجتماعي فريد ، ستتضح لنا بعض خيوطه خلال الفصول التالية . ويختلف هذا النظام جذرياً عما كان موجوداً في المدن الأيطالية الأخرى ، مثل ميلانو ونابولي . مما أدى إلى ظهور عدد من المثقفين والعلماء ، من أمثال سالوتاتي الذي أشرنا اليه . ومن بعده تلميذه ليوناردو بروني Bruni (١٣٧٤ / ١٤٤٤) الذي تعلم اليونانية في رجولته ، وأخذ يترجم كتبها إلى الأيطالية .

وكان بروني قد ولد في أريزو ، ثم أصبح سكرتيراً للبابا . وهو يشتهر بكتابه في تاريخ فلورانسا ، والذي أعتبر أحد أصول التاريخ الحديث . وكان بروني يرى أن أنسانية الأنسان تحتم عليه مشاركة وطنه مصيره السياسي . وأن هذه المشاركة منه ، تحتاج إلى حرية كاملة يفرضها مجتمعه . وأن حب الحرية قد توافر للفلورانسيين عن الرومان . وقد عاون بروني في عمله نيكولو نيكولي Nicoli (١٣٦٤ / ١٤٣٧) الذي جمع في مكتبته عدداً كبيراً من الكتب اليونانية واللاتينية القديمة. ثم أهداها عند وفاته لمكتبة مدينة فلورانسا .

وأعقب بروني في وزارة فلورانسا بودچيو براتشيولیني Bracciolini (١٣٨٠ / ١٤٥٩) الذي قضى عدة سنوات من حياته في دراسة مخطوطات أديرة أوربا ، وخصوصاً أنجلترا واليونان . وأستخدم المترجمين والكتبة . ودرس الرسوم والحروف المكتوبة على التماثيل . وعثر على أعمال كثيرة غير معروفة لكونتيليان ولوكريتيسى وشيشرون وڤيتروڤيس وكولوميلا . ثم أصبح سكرتيراً للبابا . وهو يشتهر هو الآخر بتاريخه عن فلورانسا . وقد عاصر هذا الفيلسوف الكاردينال بيترو بمبو Bembo (١٤٧٠ / ١٥٤٧) الذي جمع بين الفلسفة والأدب والدين ، وكان مرشحاً في نهاية حياته للبابوية .

وأما الفيلسوف مارسيلو فيشينو Ficino (١٤٣٣ / ١٤٩٩) فقد نشأ في فلورانسا ، وتعلم في نابولي . ثم أصبح قسيساً . وعاش حياة رجل الدنيا . وقد أتقن اليونانية في رجولته . وترجم بعض أعمال أفلاطون وهيرميس . وقيل عنه أنه كان يجيد ٢٢ لغة من بينها العربية .

وكان حاكم فلورانسا ، كوزيمو مديتشي (الذي سنتناوله فيما بعد) قد أعطى فيشينو منزلاً إلى جوار قصره في كاريچي خارج المدينة . وقد جعل فيشينو من هذا المنزل ، منزلاً ومكتباً وأكاديمية ، يلتقي فيها مع أصدقائه وتلاميذه .

ويلاحظ أن المدرسة الفلورانسية لم تكن تفرق بين الأفلاطونية

والكاثوليكية . بل هي قد زاوجت بينهما . والحقيقة عندها، كانت - على عكس الحقيقة في مدرسة بادوا الأرسطية - حقيقة واحدة وليست حقيقتين . ومن أقطاب المدرسة الفلورانسية ، إلى جانب فيشينو ، بيكو ديلا ميرانديلا Della Mirandella (١٤٦٣ / ١٤٩٤) الذي أشتهر بكتابه Oratio وضمنه ٩٠٠ نبذة عن فلسفته . وكان تفكير ميرانديلا عقلانياً بحتاً . وقد أتخذ موقفاً عصرياً من التنجيم ، فأنكره انكاراً تاماً .

كتب ميرانديلا:

« لقد قرأت في الكتب العربية ، أنه ليس في الدنيا شيء أهم من الأنسان . فالأنسان يحتل مكانة فريدة في هذه الدنيا . وهو مركز كل ما يجري فيها من أحداث . فعندما تم خلق كل شيء ، واكتمل العالم ، قال الله للأنسان : أنني لم أعطك مكاناً محدداً . ولا شكلاً محدداً . ولا مهمة محددة . وهذا لأن عليك أنت أن تختار ماتريد أن تفعله بنفسك . وأن تحدد المكان الذي تحب أن تكون فيه . وأما بقية المخلوقات، فقد جعلت لها قوانيناً صارمة . ولكن أنت وحدك ، تختر قوانينك بنفسك ».

الي أن يقول :

« ومادمنا أحراراً ، فسيظل بأمكاننا دائماً أن نختار مانفعله . ولكن هناك عمل واحد لايجب أن ننساه . وهو أننا يجب أن نتجه باعيننا على

الدوام نحو السماء ، ونحاول ألا تتميز عنا الملائكة بشيء ».

وقد ضمت مدرسة فلورانسا أيضاً الشاعر بوليتيان Politian (١٤٥٤ / ١٤٩٤) الذي جمع إلى أعجابه بالفلسفات الأفلاطونية القديمة ، إعجاباً مماثلاً بآداب مقاطعة توسكانيا . وكان أول من لفت الأنظار إلى جمال أشعارها . وقد نادى بوليتيان بألا يقلد الكتاب غيرهم، وبالذات شيشيرون . وقال أن الكاتب «يجب أن يعبر عن نفسه ، أو هكذا يتراءئ لي ».

وطبيعي أن يؤدي الأعجاب بالحضارتين اليونانية والرومانية القديمة ، إلى رفع فلسفاتها إلى مستوى الفلسفة المسيحية . وإلى الأعتقاد بأن الأنسان يستطيع ، إلى جنب أهتمامه بالنواحي الدينية ، أن يعيش فاضلاً . وأن يستمتع بحياته الدنيوية ، إلى جنب الظفر بالآخرة . وأن يبحث عن أجابات أسئلته « لا من النصوص المسيحية ، وإنما على الأرض ». أي من التاريخ ، ودراسة الظواهر والحوادث والرجال . وسنرى أن ماكيافيلي* ، قد أخذ يدرس السياسة كعلم ، له قواعده وأصوله وأهدافه ، المنفصلة عن قواعد وأصول وأهداف الدين أو الأخلاق . وأن ليوناردو دافنشي (الذي سنتحدث عنه) قد أخذ يتساءل عن سبب تكون الصخور ، وجريان الماء ، وطيران الطيور الخ .

---

* أنظر كتابنا « ماكيافيلي » في هذه السلسلة .

أحوال أيطاليا السياسية والأجتماعية
في بداية الرينسانس

أستمرت أيطاليا قروناً وهي سوق رئيسية للتجارة الدولية بين الشرق والغرب . فكانت الأنسجة الحريرية ثم التوابل وغيرها من بضائع الشرق، تمر بموانيها ، خصوصاً البندقية ، قادمة من مصر وسوريا ، ثم تتوزع إلى وسط وغربي أوربا . وكانت أهم صادرات البندقية إلى دول الشرق هو العبيد . وكانت التجارة الدولية وقتئذ بطيئة الحركة ، كثيرة الصعوبات ، عظيمة المخاطر . وكان من أهم تلك الصعوبات أرتفاع وتعدد المكوس الجمركية ، عند دخول وخروج البضائع المنقولة بالبر الأقطار المختلفة ، وحتى بلوغها نهاية رحلتها . وكانت السفن التي تحمل تلك البضائع ،إذا أعترضت طريقها بحار ، تتعرض لأخطار الغرق والسرقة والنهب . ولهذا كانت أثمان تلك البظائع يتضاعف عدة مرات خلال رحلتها . فيجني أصحابها من التجار أرباحاً باهظة ، توازي المخاطر والنفقات التي يتعرضون لها . وتنتفع المدن التي تمر بها التجارة في طريقها الطويل ، بمكوس عالية جداً . وقد قدر ماكانت تحصل عليه

البندقية في بداية القرن الخامس عشر من مكوس البضائع المارة بها بحوالي ٠٠٠ ٢٠٠ ١ ديكات ذهبية كل عام .

ويجب ألا نغفل أنتقال « الأفكار » على طرق التجارة . وتأثير الحروب الصليبية ، بما صاحبها من قتال وهدنات ، وقتل وأسر ، وتدمير وبناء ، في نشر تلك الأفكار . وقد تم أعادة أكتشاف أوربا لأرسطو خلال القرنين الثاني والثالث عشر ، عن طريق المترجمات العربية التي أنتقلت اليها عبر هذين الطريقين ، إلى جانب طرق الأتصال الأخرى .

وقد ساعد أختلاط وأنتعاش الحركة التجارية في المدن الأيطالية ، على تنويع مظاهر الحياة السياسية والأجتماعية فيها. وعلى صبغ تلك المظاهر بالصبغة العلمانية . وساعد الميراث الروماني القديم ، على أحتفاظ الريف والمدن الأيطالية بكثافة بشرية ، لم يكن الريف والمدن الأوربية الأخرى تعرفها في هذا الوقت . وساعدت القنوات ، والطرق والأسوار الرومانية القديمة ، على حماية السكان الأيطاليين من الأعتداءات الخارجية والمجاعات والأوبئة . وكان عدد سكان كل من البندقية وميلانو ونابولي ، يجاوز في بداية الرينسانس ٠٠٠ ٢٠٠ شخص . وعدد سكان روما يقل قليلاً عن هذا العدد . بينما كان عدد سكان فلورانسا يقارب ٠٠٠ ١٠٠ شخص .

وكان لوجود البابا في روما تأثير كبير في منع ظهور قوة مركزية علمانية في أيطاليا ، سواء أكانت هذه القوة أيطالية أم أجنبية . وبينما

تحولت أكثر أنحاء أوربا إلى الأقطاع ، وقام في بعضها ممالك كبرى مستقلة ، يحرك كل منها طاغية مستبد ، تصدرت الساحة الأيطالية مدناً ودوقيات ودويلات قوية مختلفة النظم والأشكال . وكانت بعض هذه المدن والدوقيات والدويلات تتحالف ، أو تتنافس وتتقاتل ، فيما بينها . وبعاضد بعضها البابا ، أو يعاديه . وكثيراً ما أستنجدت عليه ، أو على المدن والدوقيات والدويلات الأخرى ، بالقوى الأجنبية ، كأمبراطور ألمانيا أو ملكا فرنسا أو أسبانيا .

وقد أدى هذا الأختلاف في نظم المدن والدوقيات والدويلات الأيطالية، والحركة الدائبة فيما بينها ومع القوى الأجنبية ، إلى ظهور روح الأستطلاع والمغامرة الفردية في رجل الرينسانس الأيطالي . وأيضاً إلى تفززه وقلقه . وتزعزع إيمانه بالدين . وأصطباغ نفسيته المتوترة بالواقعية والتشاؤم . ثم أتسعت ، مع توافر المعلومات في أوربا عن العالم الخارجي ، خيالاته . وتضاعفت الفرص المتاحة أمام أفراده كي يحققوا الآمال أو النجاحات أو الثروات . ونحن لا ننسى أن ماركو بولو* كان قد ترك البندقية عام ١٢٧١ في رحلة طويلة بلغ فيها الهند والصين . ثم عاد بعد ذلك بسنوات ، كي يقص الأخبار والعجائب . وأن كولومبس*، الذي كان على رأس المستكشفين الأوربيين الذين غامروا بأستكشاف البحار الواقعة إلى الغرب والجنوب من أوربا ، في أفريقيا

---

* أنظر كتابينا « ماركو بولو » و « كولومبس » فى هذه السلسلة .

والأمريكتين والشرق الأقصى ، كان أيطالياً . وقد قضى سنوات كثيرة من حياته وهو يعمل على السفن الأيطالية ، قبل أن يخرج في رحلته الشهيرة بسفنه الثلاث الأسبانية لأستكشاف أمريكا .

* * *

ولم تكن مقاليد الحكم في أكثر المدن الأيطالية في أيدي عامتها . وإنما في أيدي البوبلو Popolo ، وهم أعضاء المهن Arti الرئيسية في كل مدينة . يؤازرهم النبلاء ورجال الدين والدبلوماسية والحرب . ولم يكن عدد هؤلاء جميعاً يجاوز في المدينة الواحدة عدة آلاف . وكان البوبلو يختارون من بينهم الحكومة Signory . ولم تكن حكومة المدينة ، أو الحياة في المدينة الأيطالية عامة ، تتبع دستوراً أو قانوناً محدداً . بل كان الصراع في أكثر هذه المدن « مفتوحاً » أمام أصحاب القوة أو الثروة أو المكيدة ، ومصطبغاً في أحيان كثيرة بالدماء .

وقد أدت الزيادة في ثروات بعض التجار الأيطاليين ، إلى تحولهم من التجارة إلى أعمال البنوك . أو إلى أضافة أعمال البنوك إلى أعمالهم الأصلية . وكبرت بعض هذه الأعمال ، حتى أصبح لعائلة كالمديتشي الفلورانسية فروعاً في جميع المدن الأيطالية وبعضاً من أهم المدن الأوربية. ثم أضافت عائلة المديتشي إلى أعمالها التجارية والبنكية بعض الصناعات . فأقامت مصانع لنسج الحرير والصوف في فلورانسا . وأشترت من البابا حقوق أستغلال مناجم البوتاس في روما . وأصبحت

تقرض الأمراء والدول . وتتدخل لا في شئون التجارة والمال فحسب ، وإنما في السياسة أيضاً . وقد كان طبيعياً أن يؤدي هذا أحياناً إلى ضياع المال . فأن عائلة لوريدان بالبندقية قد أقرضت ملك أنجلترا مبالغ كبيرة لتمويل حروبه مع فرنسا ، ثم لم تر شيئاً منها .

وكان الأستقرار السياسي في داخل المدن والدوقيات والدويلات الأيطالية يقوم على توازن قواها ، إلى جانب قوى البابا، وقوى ملكا فرنسا وأسبانيا وأمبراطور المانيا والنمسا . فكانت الدنيا ، كما قيل ، للدوق أو للملك أو للأمبراطور ، والآخرة للبابا. والجسد للدوق أو الملك أو للأمبراطور ، والروح للبابا . ولكن البابا كثيراً ما مد سلطاته إلى أشياء تجاوز الآخرة والروح . ففرض على رعاياه ضرائب مختلفة الأشكال والأسماء . وعلى ما ذكر البابا سيكستس الرابع ، فأنه لم يكن يحتاج ، إذا ما أراد مالاً ، إلا إلى ورقة وريشة يحرر بهما مطالباته . وقد جمع بعض البابوات ثروات طائلة ، أستغلوا بعضها في بناء الأبنية ، وتكليف الرسامين والمثالين بتصوير صورهم وتخليد أسمائهم . وأنفقوا بعضها الآخر على حروب زائلة ، أو أهداء أقاربهم ومعاونيهم الأموال والأقطاعيات .

وكان في كل مدينة أيطالية في العادة ، حزبان يمثلان قوتي الدوق أو الأمير ، والبابا . وكان يمثل الأول في المدن الأيطالية حزب غيبيلينا Parte Ghibellina الذي كان أنصاره يلبسون الأرواب الطويلة البيضاء

يحملون وروداً بيضاء . ويمثل الثاني حزب جيلفا Parte Guelfa الذي كان أنصاره يلبسون الأرواب المربعة الحمراء ، ويحملون الورود الحمراء . وقد أتخذوا من النسر ، ثم من رموز سوداء شعاراً لهم .

وكانت أهم معاقل الغيبيليين في مدينتي سيينا وبيروجيا . وأهم معاقل الجويلفيين في قلعة أورفينو الجبلية ، التي كثيراً ما لجأ اليها البابا وأهم كرادلته ، إذا ما ضاقت بهم الأحوال . وأما في أكثر المدن والدوقيات والدويلات الأيطالية الأخرى ، كفلورانسا وميلانو والبندقية ، فكان الحزبان يكادان أن يكونا متعادلين .

ولكن قوة حزب البابا ، جيلفا ، أخذت تتزايد خلال القرنين الثاني والثالث عشر . فبدأت ميلانو تستعين بالفرنسيين في مصارعته . وعندما جاء البابا مارتن الخامس في ١٤٢١ ، فقد التوازن فعاليته . وأخذت المدن والدويلات والدوقيات الأيطالية تتحارب فيما بينها . فقاتلت فلورانسا بيزا وبيستويا . وأبتلعت البندقية بادوا وڤيرونا . وأحتلت ميلانو باڤيا ولودي . وتحالفت فيرارا ومانتوا ، مع الأراضي المحيطة بهما في شمالي أيطاليا . ويلاحظ أن إنجازات الرينسانس في أيطاليا ، قد تمت كلها وسط هذا الجو المضطرب ، بل المشتعل ، بين المدن والدويلات والدوقيات الأيطالية . وقد ساعد هذا على تدمير القديم البالي ، وبناء الجديد الباقي . حتى قيل أنه كان من الضروري في ذلك الزمن المضطرب ، أن « تموت أيطاليا ، كي تبعث الحياة في أوربا ».

وفي هذه الأثناء ظهر مرتزقة الحرب الأيطاليين : الكوندوتييري Condottieri . فأن الصراع بين المدن والدويلات والدوقيات الأيطالية كان ضارياً . ولم تكن هناك جيوش كافية أو دائمة للمشاركة فيه . كما أن الفلاحين وأبناء المدن والدوقيات الأيطالية لم يعودوا يوفوا به ، حتى لو تركوا أعمالهم في الزراعة والصناعة والتجارة . لأن أساليب الحرب كانت قد تغيرت ، وأصبحت أكثر تعقيداً عما كانت عليه في القرون الوسطى. فظهرت المدافع الجديدة ، التي تستخدم القذائف بدلاً من الأحجار . وغير ظهورها المفهوم القديم في بناء القلاع والحصون . فظهرت التحصينات الصلبة والمدعمة ، بدلاً من الحجرية الطريلة (وكان ممن ساهم في هذا التطوير ليوناردو دافنشي) . وهكذا أضطرت المدن والدويلات والدوقيات الأيطالية إلى إستئجار المرتزقة «الكوندوتييري ». وكان أكثرهم من الأجانب ، وفي أحيان كثيرة من السويسريين . ولكنهم أصبحوا بعد ذلك من بين الأيطاليين .

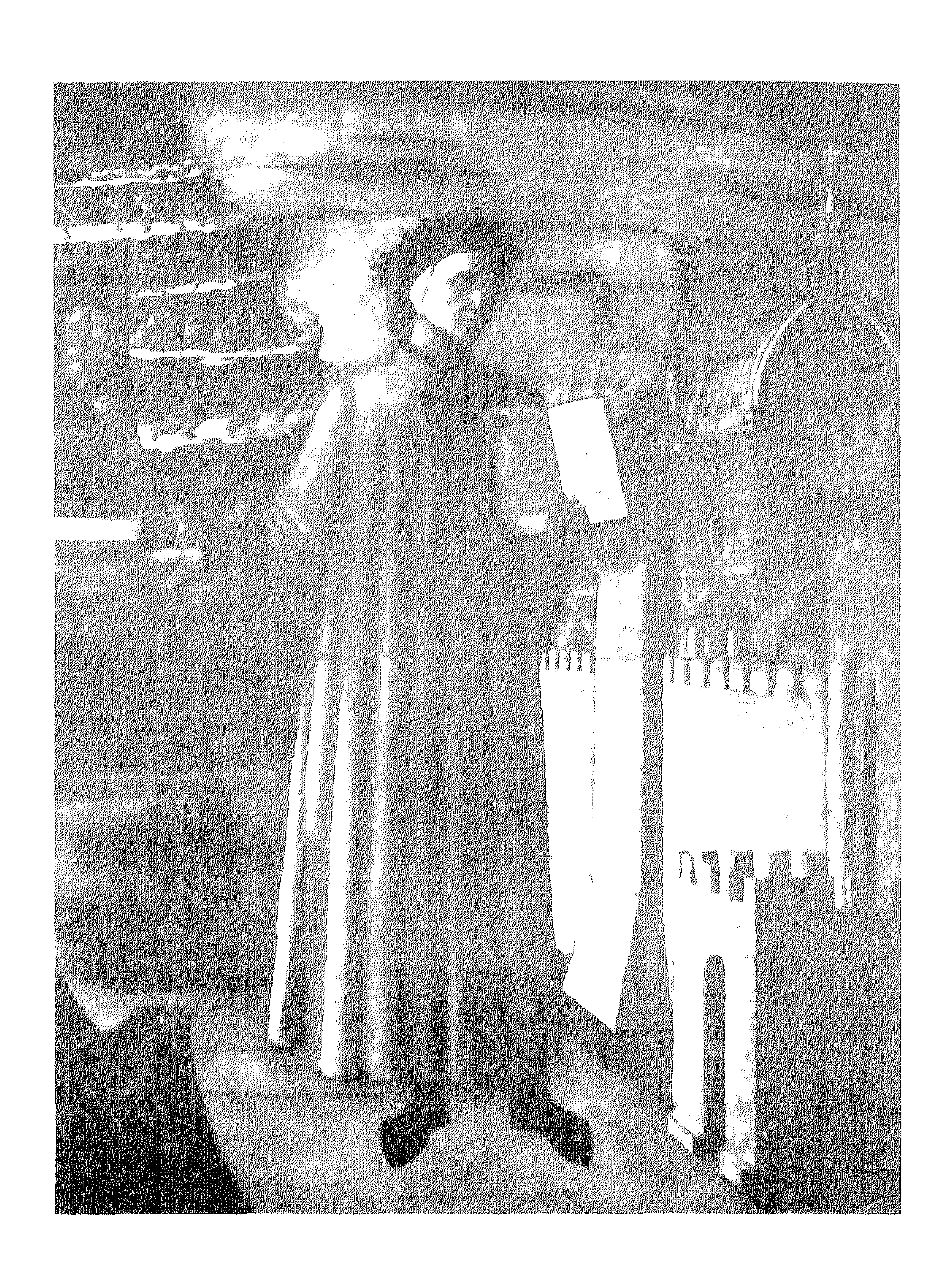
وقد أنتزع هذا التطور القوة من البوبلو ، وركزها - بأكثر مما كانت عليه - في أصحاب الأموال . ثم أصبح الكوندوتييري خطراً على المدن المستقلة . فأنه يستطيع بسلاحه أن يستبد بسيده . وقد فعل هذا سفورزا في ميلانو . وكاد كارمانولا أن يفعله في البندقية . ولكن البندقية كانت تراعي ألا يكون قواد الكوندوتييري من أهل المدينة . وعمل الفلورانسيون دائماً على أن يتخللوا صفوف مرتزقيهم بأعداد كبيرة من

الجواسيس الموثوق بولائهم .

ثم أنتقل الأعتماد على الجواسيس ، من الشئون الداخلية والعسكرية، إلى الشئون الخارجية . كما في البندقية . وقوي دور الدبلوماسية . وأهتمت المدن الأيطالية بهذه المهنة الجديدة أهتماماً كبيراً. وأصبحت هي الوسيلة المفضلة في فض أكثر خلافات القرن الخامس عشر.

وطبيعي ألا يهتم الكوندوتييري بموضوع القضية التي يحاربون من أجلها ، مادام أصحابها يدفعون لهم أجورهم . وطبيعي أيضاً ألا يتعجلوا القتال لنصرتها ، أو يخلصوا في قتالهم لها . وأن يفضلوا ، عند الجد ، الحصار على الأشتباك المسلح . وأن يولوا جمع الفدي والأسلاب أهتمامهم الأول . بل إن الكوندوتييري كانوا يتوقفون عن الحرب إذا ما حل المساء . ويتبارزون بالسيف من فوق خيولهم ، ويكرهون أستخدام المدفعية الجديدة . وكانوا يأنفون من الحرب فوق الجبال، ويفضلون أن تجري معاركهم فوق السهول المنبسطة . وقد كتب ماكيافيلي عنهم :

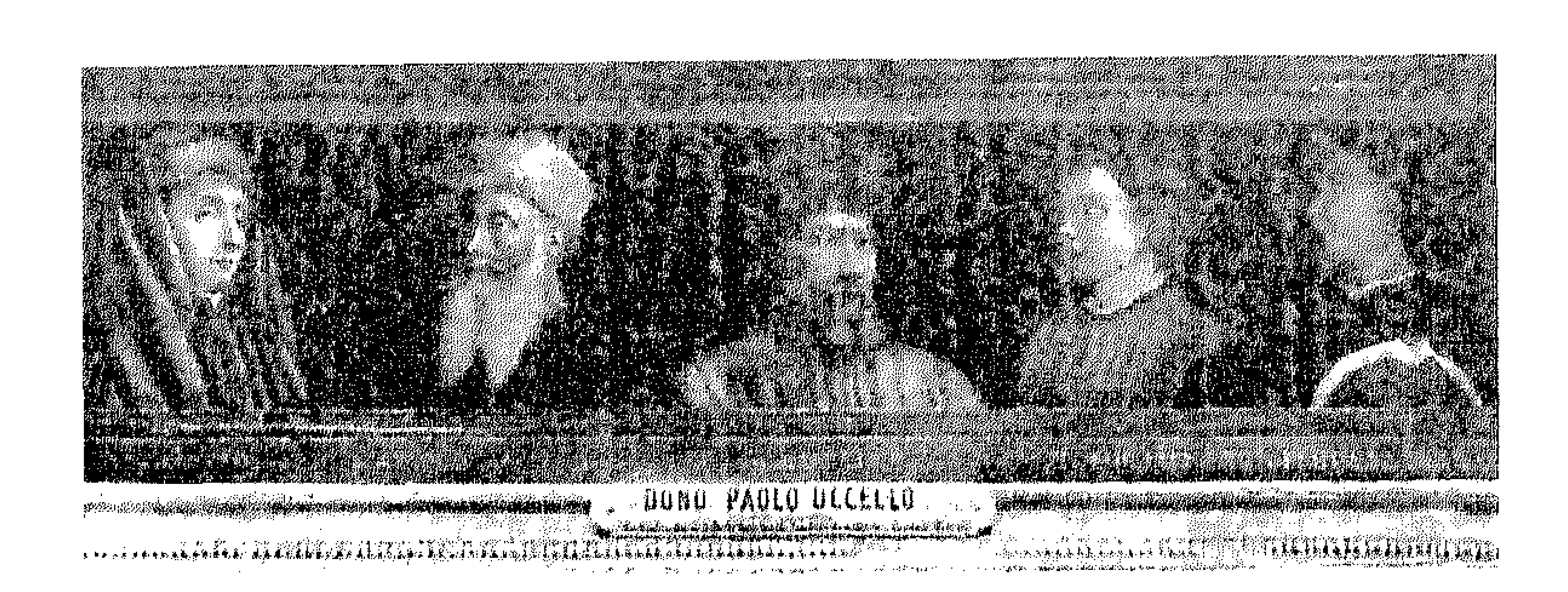
« أن من يوكل أمر دفاعه إلى جنود مرتزقة ، لن يصبح يوماً في أمان. لأن الكوندوتييري متفرقون بلا نظام ، وطامعون بلا أخلاص . أقوياء على أصدقائهم ، ضعفاء على أعدائهم . لايخشون الرب .



دانتى فى المدينة المقدسة لميشيلينو

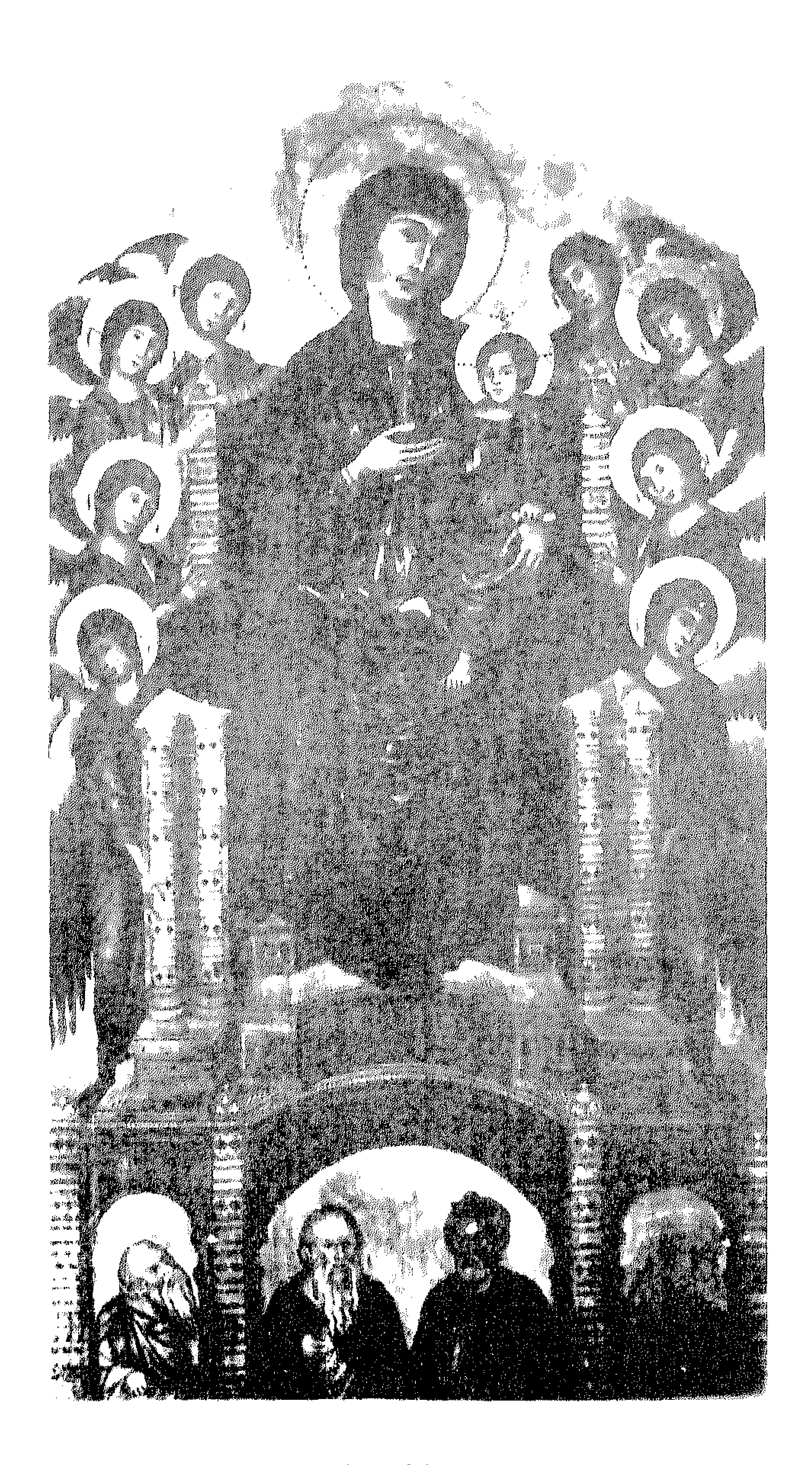


بترارخ



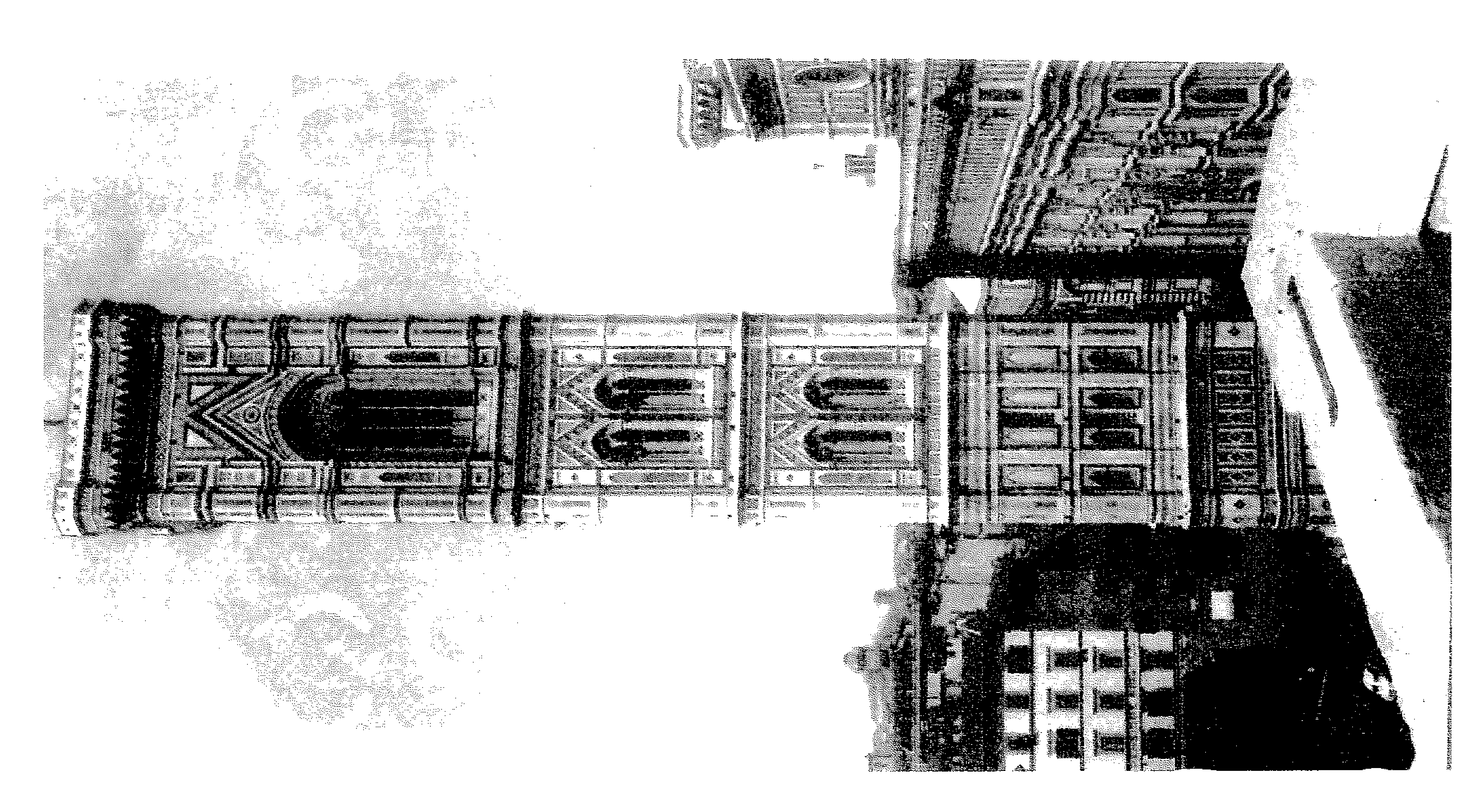
اوتشيلو (رسم نفسه الثاني من اليسار) ومعه الرسام جيوتو، والمثال دوناتيلو،

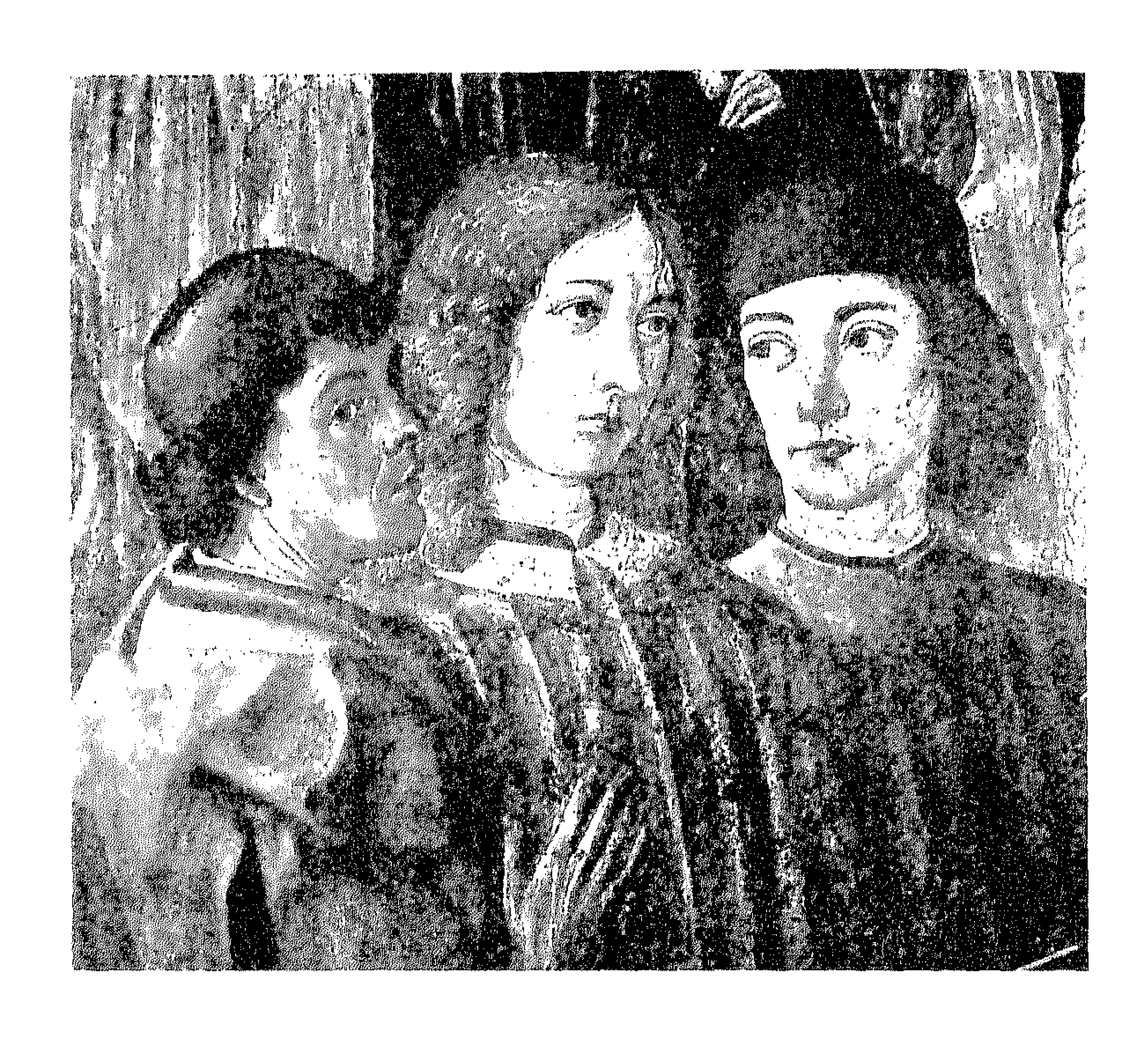
والرياضي مانيتي، والرسام برونيليتشي



العذراء والطفل لسيمابيه

برج كاتدرائية فلورنسا لجيوتو

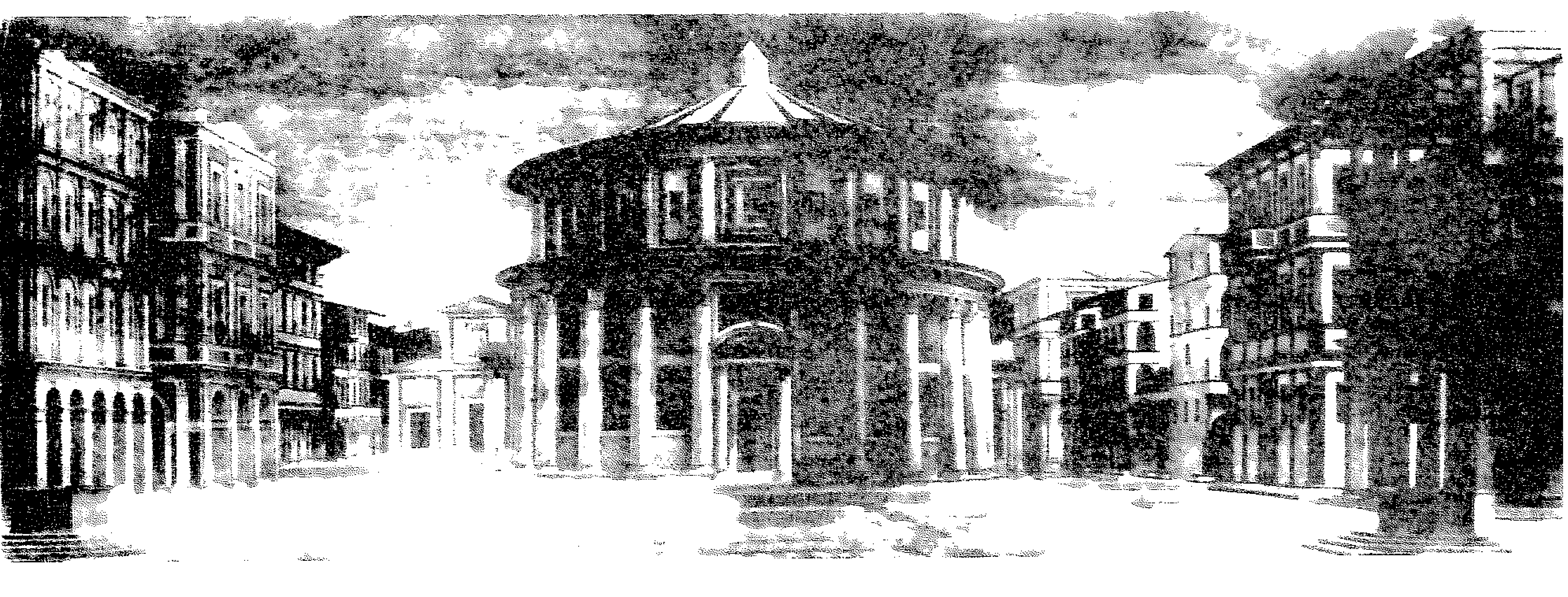




«المعجزة» لروسيلى، ويظهر فيها من اليسار بيكو وفيشينو وبوليتيان.

باب الجنة بفلورانسا لغيبرتي





«المدينة المثلى» لديلافرانسيسكا



تمثال «جوديث وهولو فيرينت» لدوناتيلو

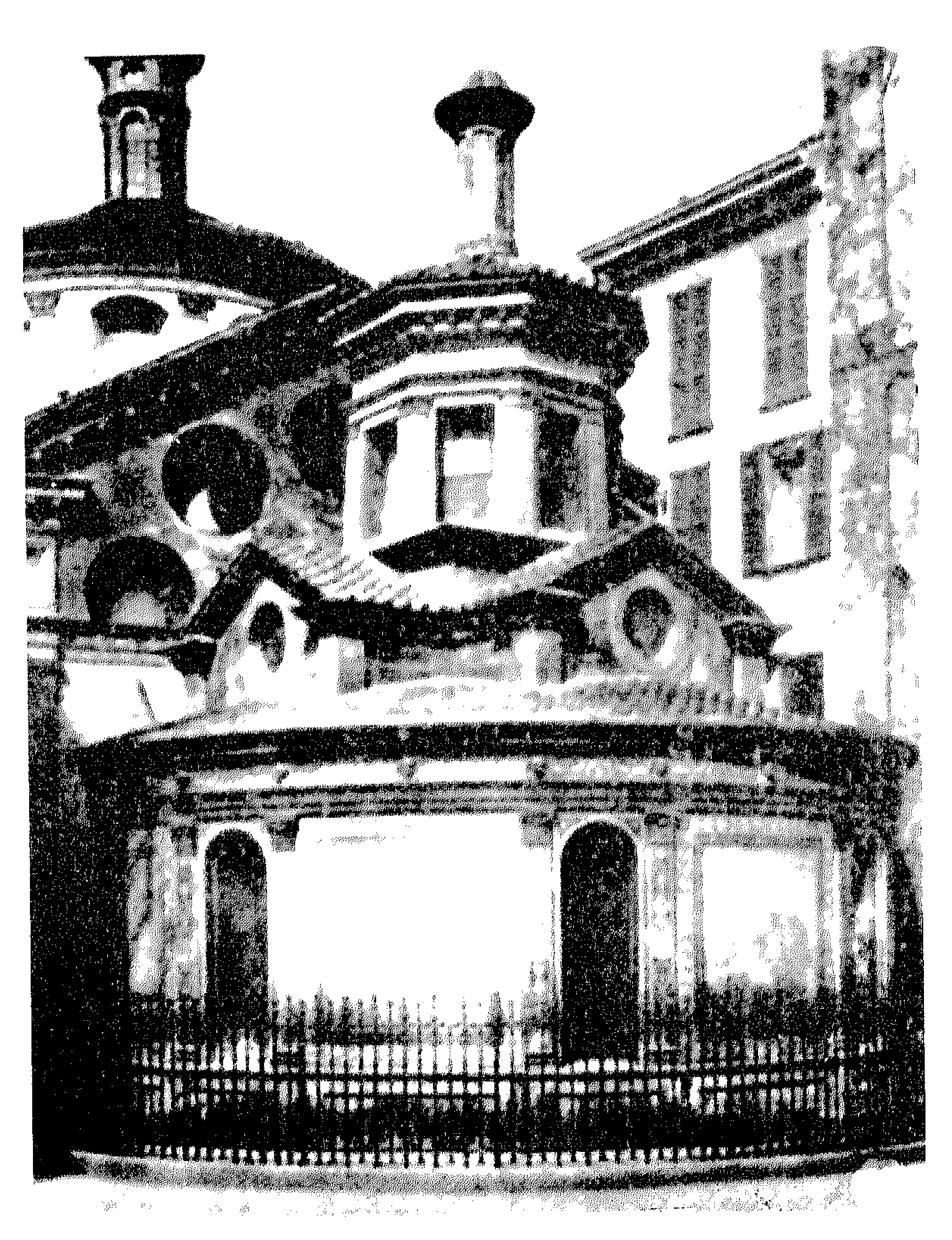


مكتبة سان ماركو بفلورانسا لميشيلوزو

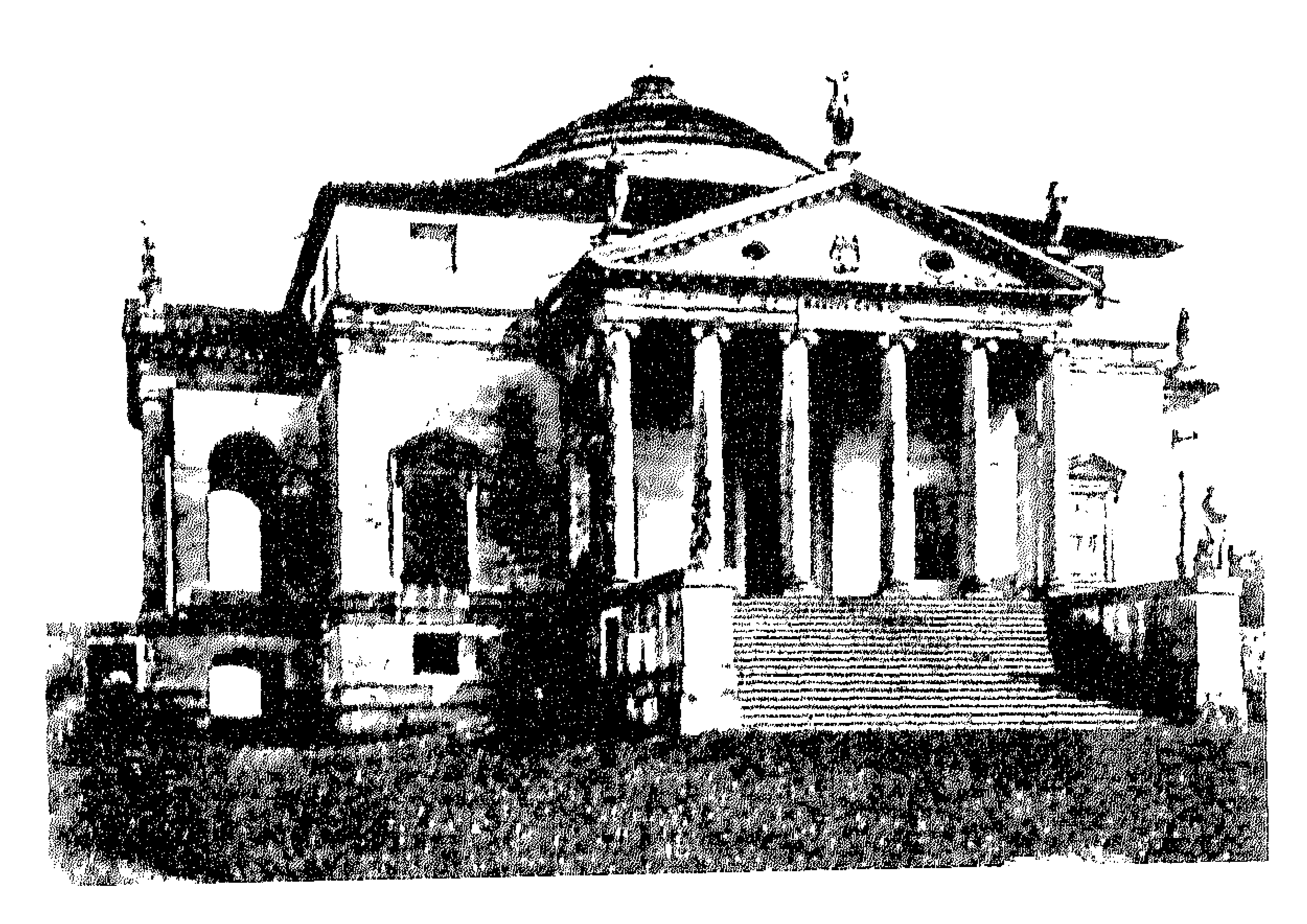
«العذراء والطفل مع سانت آن» لمازا تشيو



«تمثال الكوندو تييرى كوليونى» لفيروتشيو



روتاندا سانتا ماريا بميلانو لبرامانتي

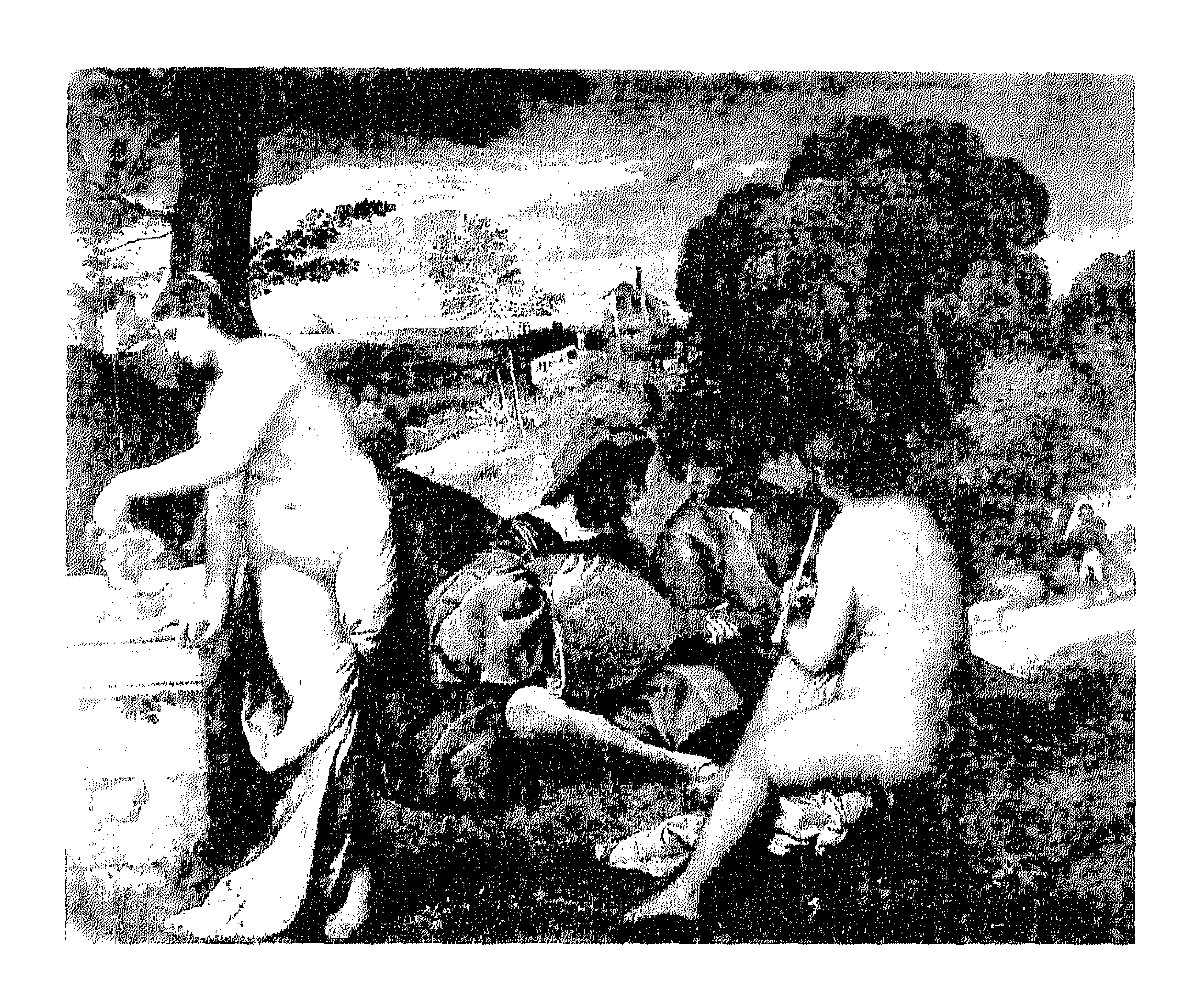


ڤيلا كابرا، بفيشنزا لبلاديو





السلطان محمد الثاني - لجنتيل بيلـ



«عيد شابيت» لجيورجيون

«فينوس اناديومين» لتيتيان



«بالاس يبعد مارس» لتينتورتو





«إغتصاب أوربا» لفيرونيز



مارتين لوثر بريشة كارناخ

ولايحترمون الوعود ».

وكان الجيش الفرنسي هو أول من أستخدم المدفعية الحديثة في فورنوفو عام ١٤٩٥ . وأستطاع بها وبقوات لايزيد عددها عن ثلث عدد قوات الكوندوتييري الأيطاليين ، أن يهزمهم . بينما كان الكوندوتييري قد تركوا القتال ، وتحولوا لمحاولة نهب معسكر الفرنسيين .

دور أوربينو ومانتوا وفيرارا
في ظهور الرينسانس

بدأ الرينسانس بالفلسفات والعلوم والآداب ، ثم أنتقل منها إلى الفنون . ويقال أن الفلسفة والعلوم والآداب الأيطالية قد أنحصرت زمن الرينسانس في أيدي عدد قليل من أبناء الطبقتين العليا والوسطى في فلورانسا . وأما الفنون ، كالهندسة والرسم والنحت ، فقد أحس بها جميع الأيطاليين .

وقد لعبت الدويلات الشمالية الصغيرة : أوربينو ومانتوا ، وبعد ذلك فيرارا ، أدواراً هامة في بعث الرينسانس في شمالي أيطاليا . حتى أصبحت تلك الدويلات محط أنظار أوربا . وكان أبناء البلاطات الأيطالية والأوربية يذهبون إلى بلاطي أوربينو ومانتوا بالذات ، كي يتعلموا علوم وفنون العصر . ويعود السبب في هذا إلى فيدريكو داه مونتيفيليترو Da Montefeletro (١٤٤٢ / ١٤٨٢) ثم أبنه جويدوبالدي ، دوقا أوربينو. وقد رسم يوستاس جنت Guinte للأثنين

صورة تعد من أشهر صور الرينسانس . يتجه فيها فيدريكو بعينه اليسرى للمصور . فقد كان جندياً مرتزقاً «كوندوتييري» ، وقد فقد عينه اليمنى في القتال . ولكنه جمع من عمله هذا أموالاً طائلة ، أستخدمها في بناء قصره في أوربينو . الذي وصف بأنه كان مدينة كاملة ، فيه كل ما يخطر ببال . وفي تزيينه بالتحف والصور والتماثيل . وفي تحويل دوقيته إلى مركز حضاري مرموق .

وتمثل الصورة التي رسمها يوستاس جنت ، فيدريكو وهو يحمل كتاباً قديماً ، يقرأ فيه الكلاسيكيات اليونانية والرومانية ، دلالة على ثقافته . وقد قيل أنه كان يعرف اللغتين . وإلى جانبه سيفه . ويحيط بركبته التي رفع عنها الثوب ، وساماً رفيعاً ، هو الجارتر ، حصل عليه من ملك أنجلترا لشجاعته . وإلى جانبه وقف أبنه جويدوبالدي ، ممسكاً بشمعة مضيئة ، دلالة على حمله مشعل الحضارة في دوقيته .

كذلك رسم ديلا فرانسيسكا (الذي سيأتي ذكره) صورة أخرى شهيرة لفيدريكو وزوجته باتستا سفورزا .

وقد قيل أن فيدريكو كان إذا سمع بكتاب جديد قيم ، في أيطاليا أو في خارجها ، لم يبخل بجهد أو مال في سبيل الحصول عليه . وأنه كان يستخدم ثلاثين أو أربعين ناسخاً يعملون له بصفة دائمة في نسخ أفضل الكتب .

وقد خلف جويدوبالدي والده في دوقية أوربينو . وكان مريضاً ،

يُمضي أياماً كثيرة مستلقياً على ظهره يقرأ . وقد تزوج جويدوبالدي من اليزابيتا جونزاجا ، ولم ينجب منها . وقد ربت اليزابيتا الرسام الشهير رافاييل (كما سيجيء). وخلف جويدوبالدي في حكم أوربينو ، أبن أخته فرانسيسكو ديلا روڤيري.

على أن أهمية أوربينو لايعود إلى عائلة داه مونتيفيليترو وحدها ، وإنما يعود إلى حد كبير لوجود الفيلسوف والدبلوماسي الأنساني بالدازار كاستليوني Castiglioni (١٤٧٥ / ١٥٢٩) في بلاطها . وكان كاستليوني قد عمل في بلاط مانتوا قبل أنتقاله إلى أوربينو . وقد أرسله جويدوبالدي إلى أسبانيا في مهمة ، ولكنه مات هناك . وقد رسمه رافاييل في صورة تعتبر من أجمل أعمال ذلك الفنان الشهير . وهي الآن في متحف اللوڤر بباريس . وقد أعتبرت صورة رافاييل لكاستليوني « أكثر صور الرينسانس تعبيراً عن الرينسانس ».

وقد أعتبر كاستليوني مثال الرجل العصري ، والدبلوماسي الكامل . وأشتهر بمؤلفه « رجل البلاط Il Cortegiano الذي حدد فيه مواصفات الرجل الكامل L' Uomo Universale ، لا من حيث طريقة المشي والحديث والسلوك وحدها ، وإنما من حيث تواضعه . « إذ يجب أن يكون أنساناً ، وألا يسيء إلى أحد ، أو يتظاهر بالرفعة أو الثراء أمام أحد ». ويقال أن الأمبراطور الفرنسي شارل كان يحتفظ إلى جانب سريره بثلاثة كتب : أولاها الأنجيل . والثاني هو كتاب ماكياڤيلي « الأمير ».

والثالث هو كتاب كاستليوني « رجل البلاط ».

ويقول كاستليوني : أن الرجل الكامل هو الذي ..

« جمع إلى حسن المحتد والنشأة ، خلقاً سهلاً ، وذوقاً رفيعاً، وتقديراً للجمال . وأحب أقتناء الكتب والعملات والآثار القديمة . وتعرف إلى المعارف القديمة . ودرس التاريخ والفلسفة . وهوى الوسيقي والرسم . وأهتم بالنحت والهندسة ».

وقد أستطاع كوندوتييري آخر هو لودڤيكو جونزاجا Gonzaga أن ينتزع منذ عام ١٣٢٨ حكم دوقية مانتوا . وكان لودڤيكو حكيماً ، فأستطاع أن يهادن سادته السابقين في فلورانسا وميلانو ، وأن «يشتري» حق حكم دوقيته من البابا. ثم أقام الأنتخابات فيها ، فأرضى شعبها . وزوج بناته من أهم العائلات النبيلة في أيطاليا ، فضمن تأييدها وولاتها . ثم بدأ أصلاحاته في الدوقية . فأدخل إليها تجارتي الصوف والحرير ، وبنى البنايات والمستشفيات ، وشق الطرق وأقام الميادين . وزينها كلها بالتماثيل والصور .

وقد تزوج حفيده فرانسيسكو من إيزابيلا دايست d' Este أميرة فيرارا . وأنتفعت مانتوا وأسرتها الحاكمة بهذا الزواج أنتفاعاً كبيراً . فقد أدخلت إيزابيلا النفوذ والثروة إلى دوقيتها الجديدة . حتى عقد فيها عام ١٤٥٩ جلسات المجمع المقدس ، كما أشرنا . وزارها ني عام ١٤٧٤ ملك الدنمرك .

وقد عمل للودفيكو في مانتوا ، الفيلسوف الأنساني فيتوريو دا فيلتر da Feltre (١٣٧٣ / ١٤٤٦) الذي أقام في الدوقية أكاديمية شهيرة أختصت بتثقيف الشباب . وقد أعتبر داه فيلتر أن التعليم ليس تلقيناً ، وإنما يجب أن « يتناول الجسم مثلما يتناول العقل ، والحواس مثلما يتناول الروح ». وقد ضمت أكاديمية دا فيلتر الشابات إلى جانب الشبان . وعلمهم هذا الفيلسوف الأنساني الكبير قراءة ڤرجيل وهومر وشيشرون، مثلما علمهم المصارعة والسباحة وركوب الخيل .

وقد عاش بيكو ديلا ميرانديلا (الذي أشرنا اليه) ، فترة من الوقت في بلاط لودڤيكو جونزاجا . وضم هذا البلاط أيضاً الفيلسوف الأنساني والرياضي والمهندس الفلورانسي ليون باتستا ألبرتي Alberti (١٤٠٤ / ١٤٧٢) والرسام أندريا مانتينا Mantegna (١٤٣١ / ١٥٠٦) .

وكان ألبرتي قد عمل في فلورانسا حتى حوالى ١٤٦٠ . ويقال أنه عندما ذهب إلى هناك ، وجد « جيلاً من الفنانين العباقرة في كل غرض نبيل ». وأنه كان يطلب إلى تلاميذه أن يستعينوا بالرياضيات في أعمالهم . وأن يخضعوا الهندسة للرياضيات . وأن يتعلموها من ملاحظة عمالهم . ويطلب من النحاتين أن يشرُحوا الجسم الأنساني كي يعرفوا تكوينه . « وأن يبدأوا في رسومهم بالعظام ، ثم يضيفوا إليها العضلات، ثم يغطون الجسم بالجلد والملابس ، بحيث يتركون شيئاً من آثار عضلاته ظاهرة ».

وقد صمم ألبرتي قصر روتشلاي ، وواجهة كنيسة سانتا ماريا نوڤيلا، في فلورانسا . وأشتهر بتصميمه لكنيسة سان سباستيانو، التي قتم أحد الكرادلة عندما وقع نظره عليها بعد الفراغ منها « أنني لا أستطيع أن أقول أكنيسة هذه أو كنيس أو جامع ؟».

وكان ألبرتي قد أختار لمبانيه الأستدارة والتجانس ، ولطرقه الأمتداد والأتساع . وقد أعاد بناء كنيسة سان فرانسيسكو في ريميني لحساب مالاتيستا . ولكن الأهلين هناك أطلقوا عليها أسم «معبد مالاتيستا» لشدة شَبَهها بالمعابد الوثنية القديمة . وكان ألبرتي يردد أن الأنسان ..

« سيد نفسه . وسبب تعاسته أو سعادته . لأن الله قد أعطاه جسداً أجمل من كل ما أعطى بقية المخلوقات . وأعطاه قدرة على التحرك ، وعلى تصريف الأمور . وأعطاه حواس دقيقة ومختلفة . وأعطاه البداهة والحجة والذاكرة . وكل هذا لم يعط الله مثله إلا للأرباب الخالدين ».

وكان ألبرتي قد كتب قبل وفاته حياته ، على ماكان يفعل بعض رجال الرينسانس . ورسم لنفسه صورة . ثم ترك بعد وفاته قالباً لوجهه ، على ماكان يفعل الرومان .

وأما مانتينا ، فقد عمل في بادوا فترة . ثم أنتقل منها إلى مانتوا. وقد زين حجرة العرش بقصر مانتوا بتماثيل الأباطرة الرومان . وصنع لعائلة جونزاجا صورة كبيرة وجامعة ، أصبحت بعد ذلك من أشهر صور الرينسانس . فأن الصور السابقة كانت كلها صغيرة . وأما صورة مانتينا

فكانت بالحجم الطبيعي . وقد أهتم في رسمها بالضوء والمسافات والحركة . وضمت جميع أفراد عائلة جونزاجا بملابسهم الرسمية ، ومع نياشينهم ، وحتى كلابهم . وتتلمذ على مانتينا بعد ذلك بيلليني . وتأثر به رافاييل. وقد جعله البابا أينوسنت الثامن كونتاً .

وقد أشتهر بلاط إيست في فيرارا بأثنين من أعظم الفلاسفة والأدباء. والأول هو لودفيكو أريوستو Ariosto (١٤٧٤ / ١٥٣٣) . والثاني هو توركواتو تاسو Tasso (١٥٤٤ / ١٤٩٥) . وكان الأول قد ولد في مودينا . ثم أصبح شاعراً وكاتباً مسرحياً مرموقاً . وقد أشتهر بروايته عن أحد فرسان شارلمان : أورلاندو المجنون .

وأما تاسو ، فقد ولد في سورينتو ، ودرس في بادوا ، ثم عاش في فيرارا . وقد أشتهر برائعتيه : تحرير القدس وهزيمة القدس . وجدير بالذكر أن تاسو قد جن منذ ١٥٧٩ ، وأحتفظ به دوق فيرارا في إحدى المصحات ، خلال الأعوام السبعة التالية . ولكنه أستمر يكتب في مصحته أعماله ، حتى أفرج عنه في ١٥٨٦ ، وعاود حياته الطبيعية . ولكن بعض الأدباء ، وعلى رأسهم الأنساني الألماني الشهير جيته *، ظن أن تاسو قد وقع في غرام شقيقة الدوق ، ليونورا . وأن الدوق لم يرض عن هذا الغرام . وسجن تاسو ظلماً طوال الأعوام السبعة التالية بدعوى جنونه . وقد كتب جيته في هذا الموضوع رائعته «توركواتو تاسو».

---

* أنظر كتابنا « جيته » في هذه السلسلة .

المؤثرات تتجاذب الفن الغوطي

كان الفن في أوربا غوطياً ، حتى قامت حركة الرينسانس ، فأخذ يستمد من البيزنطية ، إلى جانب المؤثرات الأخرى التي تسللت اليه من أقينيون وبورجوندي وڤلاندر وفلمنك . وجدير بالذكر أن النحات والمهندس أنتونيو فيلارتي Filarete (١٤٠٠ / ١٤٦٩) الذي نحت الباب الأوسط في سانت بيتر بروما ، وبنى البرج الأوسط في قلعة ميلانو ومستشفاها الكبير ، قد أغتبر أن الغوطية « ألمانية ». وأن البرابرة هم الذين نقلوها إلى أيطاليا . وقد ردد هذا القول بعده آخرون .

وكانت مواضيع الفنون تنحصر في الدين ، إلى جانب رسم ونحت الأمراء والأشراف . ولكن التجار والصناع الجدد ، أخذوا يقتدون بهم . وتبارت المدن الأيطالية المختلفة في أستخدام النحاتين والرسامين ، وتنظيم المسابقات الكبرى لأتمام الأعمال الفنية الكبيرة .

وتعود التجارب الأولى في خلط الطراز الغوطي بالطراز البيزنطي إلى مدرسة سيينا . ومن أهم روادها ديوتشيوديه بيونينسينا di

Buoninsegna (١٢٦٠ / ١٣١٩) . وكان له أسلوب رقيق ودقيق . وقد أشتهر برسومه للعذراء ، وعن حياة المسيح ، في كاتدرائية سيينا .
وكذلك سيمون مارتيني Martini (١٢٨٤ / ١٣٤٤) الذي عمل في بيزا وأورفينو ونابولي ، وخدم باباوات أڤينيون المنفيين . ولازالت بعض أعماله باقية في قصر الحكومة بسيينا .

واما لورانزو جيبرتي Ghiberti (١٣٧٨ / ١٤٥٥) فقد ظل أميناً للطراز الغوطي ، رغم دراسته في فلورانسا للطراز البيزنطي . وقد زار جيبرتي روما بعض الوقت . ثم عاد إلى فلورانسا ، وصمم مع فيلارتي الباب الشمالي للمعمدة ، الذي أطلق عليه مايكل أنچيلو أسم « باب الجنة» . (وأما باب المعمدة الجنوبي ، فقد صممه أندريا بيزانو على ما سبق القول) . ثم أفتتح جيبرتي في ميلانو معملاً كبيراً Bottiga للرسم والنحت ، تعلم فيه عدد كبير من الفنانين .

وقد أشتهر جيبرتي بتماثيله البرونزية في أور سان ميشيل . وبكتابه Commentari الذي تحدث فيه عن حياته ، وحياة نفر من أشهر فناني الرينسانس .

وقد ظهرت الموجة الجديدة في تلقيح الطراز الغوطي بالبيزنطي في فلورانسا حوالي عام ١٤٢٠ . وقد أستعانت بالرياضيات في تحديد المساحات ، وأستخدمت الألوان والخلفيات في تجسيد الصورة . ثم أتجهت إلي الواقعية . وأمتد التعبير إلى روح وشخصية المرسوم . حتى

أصبح «رسم الوجه يكشف » كما قال ليوناردو دافنشي « عما يجري بالعقل».

وكان المهندس والنحات فيليبو برونيليتشي Brunelleschi (١٣٧٧ / ١٤٤٦) والنحات دوناتيلو Donatello (١٣٨٦ / ١٤٦٦) من أقطاب تلك المدرسة . وكانا قد زارا روما معاً ، ثم عادا معاً أيضاً إلى فلورانسا . وقد صمما وزينا ، مع ميشيلوزو Michelozzo (١٣٦٩ / ١٤٧٢) عدداً من قصور عائلة المديتشي في فلورانسا .

وكان برونيليتشي صائغاً ، ثم عمل مهندساً . وهو من أوائل من أستخدموا القواعد الرياضية في التصميم . ورفعوا الرسم إلى مقام العلوم ، بأستخدام درجات الألوان ، وأضافة الخلفيات التي تجسده . وقد أدخل برونيليتشي على تصميماته الأعمدة والقباب المتماثلة التي ميزت الرينسانس . ومن أهم أعماله تصميمه لقبة كاتدرائية فلورانسا ، التي أقامها من ثمانية قطاعات مستندة إلى ضلوع منحنية ومدببة . (وقد حاكاها مايكل أنجيلو في تصميمه لقبة سانت بيتر بروما). وواجهة إسبتالية (مستشفى) إينوسينتي . وكنيسة سان لورنزو . ومذبح باتزي. والجزء الأوسط من قصر بيتي .

وقد لُقب دوناتيلو برائد النحت التوسكاني . وكان أول من صمم تمثالاً عارياً في الرينسانس ، وهو تمثال « الصبي داڤيد ». وقد صنعه أولاً من الرخام ، ثم عاد فصنعه مرة أخرى من البرونز . وقد أشتهر

دوناتيلو بتغييره لمعالم الوجه ، بالتعبير والحركة . وفي نهاية حياته ، بأستخدام الخطوط المستديرة . وأشترك في تزيين الدومو . ونحت تمثال «جوديث وهولوفيرينس » ومنبر كنيسة سان لورنزو . وأشترك مع ميشيلوزو في بناء أحد المدافن البرونزية في المعمدة .

وقد ذُكر عنْ دوناتيلو أنه لم يكن يهتم بالنقود . وأنه يضع كل ماعنده منها داخل سلة يعلقها وسط معمله ، ويأخذ كل شخص منها ما يحتاجه . وقد ساومه أحد التجار مرة على ثمن تمثال صنعه له . فأخذ منه التمثال وكسره وسط الطريق ، وطرده من معمله .

وكان ميشيلوزو قد نفي فترة من فلورانسا إلى البندقية . ولما عاد إلى فلورانسا ، بنى مكتبة دير سان ماركو ، وبنك المديتشي فيها . وساهم في بناء قصور مديتشي ريكاردو ، وڤيلات ستروزينو ، وفيتشيو، وڤيلات وكاريچى وڤيسول .

ومن أشهر الرسامين الأوائل في فلورانسا ، فرا أنچيلكو Fra Angelico (١٣٨٧ / ١٤٥٥) ومازاتشيو Masachio (١٤٠١ / ١٤٢٨) . وكان الأول راهباً دومينيكياً . وقد زين برسومه دير سان ماركو بفلورانسا .

وأما مازاتشيو ، فقد رسم في شبابه في فلورانسا . وأشتهر بالخروج على الغوطية ، وبالواقعية ، والبساطة في التعبير . وقد أعطى كل جسم في صوره أهميته ، من حيث المساحة والضوء . ولقب بالأب الحقيقي

لرسوم الرينسانس . وكان له تأثير مباشر وسريع على معاصريه . ولكنه كان غريب الأطوار .

ولمازاتشيو رسوم في مذبح كنيسة كارمين ، وفي كنيسة سانت ماريا نوڤيلا بفلورانسا . ومن أجمل صوره الباقية « طرد آدم وحواء من الجنة » و « إزجاء التهاني ».

وقد تتلمذ بيرو ديلا فرانسيسكا della Francesca (١٤٢٠ / ١٤٩٢) على مازاتشيو في فلورانسا ، بعد حضوره اليها من أومبريا . وكانت رسومه بسيطة ، وألوانه هادئة . ومن أجمل لوحاته الباقية صورة لفيدريكو ديه مونتيفيليترو ، وزوجته باتستا سفورزا . وللمدينة المثلى . ولكنه تحول بعد ذلك إلى الرياضيات ، ووضع كتاباً في المنظور .

وتتلمذ على ديلا فرانسيسكا بالتالي ، مواطنه لوكا سينوريلي Signorelli (١٤٤٥ / ١٥٢٣) الذي قيل أنه قد شرح جسد أبنه بعد وفاته . وقد عمل سينوريلي بعد ذلك مع بوتيتشيلي (الذي سيأتي ذكره) . ثم أتجه سينوريلي إلى رسم العرايا . وقد أشتهر بصورته «صلب المسيح » المعروضة في أوفيزي .

ونشأ وعمل في فلورانسا أيضاً الرسام والنحات أندريا ڤيروتشيو Verrochio (١٤٣٥ / ١٤٨٨) الذي تتلمذ عليه ليوناردو داڤنشي . وقد تأثر ڤيروتشيو في شبابه بدوناتيلو ، وأجاد أستخدام الأضواء . ولازال في فلورانسا عدد من أهم أعماله : كمثل لوحة مذبح المعمدة ،

ومدفن چيوفاني وبيبرو مديتشي ، وتمثالي دافيد ، والكوندوتييري .

وأما ساندرو بوتيتشيلي Botticelli (١٤٤٤ / ١٥١٠) فقد تتلمذ على فرا ليبو ليبي Lippi (١٤٦٩ / ١٥٠٦) . وقد تأثر بوتيتشيلي بالأفلاطونية . وعالج مواضيع دينية وغيبية كثيرة . وزين بعضاً من كتب دانتي . وقد أشتهر برسميه «المادونا المعظمة» و « ولادة ڤينوس».
وقام في أخريات أيامه برسم بعض رسوم مذبح السيستين في روما .

وكان فرا ليبوليبي راهباً ، قبل أن يتأثر بمازاتشيو وفرا أنچيلكو ، ويهجر الرهبنة ، ويرصد نفسه للفن . وجل مواضيعه دينية . وبعضها لايزال محفوظاً في دير سان ماركو بلفورانسا .

كوزيمو المديتشي يبني أمجاد فلورانسا

أقيمت فلورانسا زمن الرومان ، كضاحية صغيرة للمدينة التوسكانية القديمة ، ڤيسول ، الرابضة فوق الجبل الملاصق . ولم تكن فلورانسا تزيد في البداية عن بضعة منازل أقيمت على شاطيء نهر أرنو . ثم أخذ شأن فلورانسا يكبر منذ القرن الثالث الميلادي ، حتى أصبحت أحدى المدن الكبرى في مقاطعة توسكانيا . ثم أستقلت عن ڤيسول ، وأصبحت مدينة مستقلة ، منذ القرن الحادي عشر . وفي عام ١١١٥ ، أصبح لها مجلسها الخاص «الكوميون ». وبعد ذلك بعشر سنوات ، ضم كوميون فلورانسا إليه مدينة ڤيسول .

ولكن فلورانسا أحتاجت كي تعيش وتزدهر « إلى الرجال والأموال والعقول ». فأن بيزا كانت تحكم طريقها إلى البحر . وميلانو ، الغنية والقوية ، ظلت تطمع فيها من الشمال . وأما في الجنوب ، فهناك سيينا، القريبة منها ، والتي تقف في طريقها إلى روما . وكان في فلورانسا على الدوام أغلبية متفاوتة الحجم من حزب الجويلفا ، أنصار

البابا . وكان فيها على الدوام أقلية من حزب الغيبيلين ، أنصار الأمير .
وفي عام ١٣٠٣ ، أنتصر أنصار الجويلفا على أنصار الغيبيلين ، ونفوا الأخيرين إلى خارج المدينة . وقد أطلق على أولئك المنفيين وقتها أسم «الغيبيلين الغرباء ». وكان منهم - على ما أشرنا - دانتي أليچيرى ويترارخ .

وفي خلال هذه الفترة ، دخلت فلورانسا في خلافات مع جيرانها . فحاربت بيستويا وأريزو وفولتيرا وسيينا ، وزادت رقعتها على حسابهم. ولكن وباء عام ١٣٤٨ ، الذي وصفه بوكاشيو أبلغ وصف ، أجتاحها وقتل ألوفاً من سكانها . وكانت فلورانسا قد أصبحت منذ أواخر القرن الثالث عشر واحدة من أغنى وأقوى المدن في شمالي أيطاليا .

* * *

ولكن الثراء والقوة اللذين أصابا فلورانسا ، أفاد الطبقة العليا من دون الطبقات الأخرى فيها . وكان أثرياء فلورانسا يتألفون من أعضاء المهن الرئيسية في المدينة ، وهم تجار الصوف، وصناع الحرير ، ورجال البنوك والتجارة ، والصيادلة (الذين كانوا يعملون بتجارة الدواء والتوابل) والنساخون . يضاف إليهم أعضاء المهن الأربعة عشرة الأقل شاناً ، وأهمها الفندقيون والنجارون والخبازون .

وكان لكل مهنة من هذه المهن رئيساً ، وكتبتها ، وحاملو راياتها . وكان لرئيس المهنة أن يجمع الضرائب من أعضائها . وأن يتخذ لهم

قديساً . وأن يحدد لهم كنيسة يجتمعون فيها ويتعبدون .

وفي عام ١٣٧٨ قام نزاع دموي بين أشراف مدينة فلورانسا وعامتها ، حاول فيه العامة أن يزيدوا تمثيلهم في الحكومة ، وأن يخفضوا الضرائب المفروضة عليهم . وقد عرف هذا النزاع بأسم صراع تشومبي . وأيد فيه چيوڤاني ديه مديتشي Giovani صاحب بنك المديتشي Medici فيها ، عامة أهل المدينة على أبناء طبقته من الأرستقراطيين . وكان في المدينة وقتها حوالي ٨٠ بنكاً ، كان أهمها بنك المديتشي ، الذي كان له ١٦ فرعاً في أنحاء أوربا . وكان چيوڤاني أول « ميلونير» في أسرته بالمدينة. ولم يكن يتدخل في السياسة ، وإنما يكتفي برعاية العلوم والفنون . وقد أستخدم چيوڤاني المهندس والنحات برونيليتشي الذي أشرنا له ، كي يبني له مستشفي كبير بفلورانسا يحمل أسمه .

وكان من نتيجة تأييد چيوڤاني لعامة أهل فلورانسا ، أن الغيت ضريبة «الفرد» وأستبدلت بها ضريبة أخرى هي ضريبة «الواحد والنصف في المائة » على ممتلكات كل فرد . وقد أكتسب چيوڤاني بعمله هذا عداء أثرياء فلورانسا ، الذين نجحوا بعد ذلك في إعادة الحال إلى ماكان عليه أولاً . وعندما توفي چيوڤاني عام ١٤٢٩ ، فقدت فيه فلورانسا نصيراً مخلصاً وقائداً مستنيراً.

وكان جيانجاليزو ڤيسكونتي ، دوق ميلانو ، يرتب لأحتلال فلورانسا منذ عام ١٣٨٥ . وكانت فلورانسا وقتها جمهورية ديمقراطية وعصرية .

وأما فيسكونتي فكان يرى أن « الحكم الناجح يجب أن يقوم على أرادة فرد واحد قوي ». وعندما مرض ڤيسكونتي ، ثم توفي فجأة عام ١٤٠٢، أعتبرت فلورانسا أن وفاته نصراً لصلاحها وطهرها ، وأحتفلت بالمناسبة أعظم أحتفال . ويقال أن تهديد ڤيسكونتي للفلورانسيين ، هو الذي أعطاهم وحدتهم ، وأحساسهم بقوميتهم ، وإعتزازهم بأمجادهم ، وحبهم للحرية .

وكان يحكم فلورانسا في تلك الأعوام « الذهبية» سلسلة من الوزراء المستنيرين ، على رأسهم سالوتاتي ، والذي كان يعتبر أن الفلورانسيين شعب يكره الأستبداد « ومستعد لحماية حريات الآخرين». وقد أخرج الفلورانسيون وقتذاك تمثال «هولاڤيرنيث وجوديث» لدوناتيلو من قصر المديتشي ، ووضعوه وسط ميدان الحكومة ، كي يؤكدوا أن القتل هو جزاء من يستبد بالمدينة .

وقد سبق أن ذكرنا أن كريزولوراس كان قد بدأ أتجاهه المحبذ للكلاسيكية في فلورانسا . وأن الفيلسوفين بيكو ديلا ميرانديلا وڤيشينو كانا قد أقاما أكاديميتهما فيها . وفي الفنون ، أخذ چيوتو يبني برج كاتدرائيتها ، الذي أصبح بعد ذلك حديث أيطاليا ، ويمزج الطراز الغوطي المسيطر على أوربا بمثالية الكلاسيكية القديمة .

وقد خلف كوزيمو Cosimo والده چيوفاني في رئاسة عائلة المديتشي. ولم تمض ثلاثة أعوام ، حتى توفي حاكم المدينة مازوديجلي البيتزي ،

ويدأ التنافس بين أفراد عائلاتها الأرستقراطية على خلافته . وفي العام التالي ، ١٤٣٣ ، أتهمت عائلة البيتزي ، كوزيمو بالتآمر على مدينة فلورانسا ، فيما سمي بعد ذلك بفتنة البيتزي . فقبض عليه . وفرضت القوانين الأستثنائية Balai . وأؤلفت محكمة شعبية من ٢٠٠ فلورانسي لمحاكمته . وتداولت المحكمة مصير كوزيمو أياماً طويلة . ولكنها لم تتفق على رأي واحد . ويقال أن كوزيمو كان قد نجح في رشوة بعض أعضائها. فلم يعدم ، كما كان منتظراً ، ونفي إلى خارج فلورانسا مع عائلته عشرة أعوام . ولكن العفو عن الأسرة جاء بعد عام واحد فقط . فعاد كوزيمو وأسرته إلى فلورانسا . وفرت منها عائلة البيتزي ومؤيدوها . وفتك أنصار كوزيمو بكل من بقي منهم فيها .

وقد بدأ كوزيمو بعد عودته لفورانسا الأشتغال بالسياسة . فعمل حاكماً سنوات . ثم تخلى عن الحكم ، وأصبح يستبد بأمور المدينة من وراء الستار . وأستمرت سلطاته عليها كاملة طوال الأعوام الثلاثين التالية . وكان كوزيمو يستعين في أستبداده بالمدينة بأمواله الكثيرة . فيقرض المدينة لتنفيذ مشروعاتها ، ويتولى عنها سداد نفقاتها . فأذا أعوزته الحاجة ، لجأ إلى سلاح الضرائب، يفرضها على من يشاء . أو يعود إلى القوانين الأستثنائية التي سبق أن عانت أسرته منها . أو يرشو المسئولين عن أتخاذ القرارات .

وقد نجح كوزيمو في مد نفوذه على كل ما يحيط به . فعكس تحالفه

السابق مع البندقية ضد ميلانو . وساعد الكوندوتييري فرانيسسكو سفورزا على طرد عائلة الفيسكونتي من ميلانو ، وفرض نفسه دوقاً لها. وعندما أتحدت مدينتا البندقية وميلانو عليه ، شل حركتهما بمطالبتهما بأمواله التي سبق أن أقرضها لهما .

وكان كوزيمو محباً لأفلاطون . وقد شجع ڤيشينو وغيره من الفلاسفة الفلورانسيين على ترجمة أعمال الفيلسوف الأغريقي إلى الأيطالية . وكان يزور الأكاديمية ، ويستمع الى أعمال فلاسفتها، ويساهم في النقاش الذي يدور فيها . وقد جمع كوزيمو حوله عدداً كبيراً من المهندسين والنحاتين والرسامين ، على رأسهم برونيليتشي وميشيلوزو ، اللذين أقاما له ولأسرته القصور . وشيدا دير سان ماركو بمكتبته الشهيرة . وأقاما كنيسة سان لورنزو . وقد زين له النحات دونا تيلو ، والرسامون فرا أنجيليكو وفيليبو ليبي جوزولي Gozzoli (١٤٢٠ / ١٤٩٧) تلك الأعمال بالتماثيل والصور .

وعمر كوزيمو حتى بلغ من العمر ٧٥ عاماً . ولكنه أصيب في أخريات أيامه بمرض النقرس الذي أقعده عن الحركة . وتوفي أبنه الذي كان يعتمد عليه في مواصلة أعماله . ولم يبق له إلا أبن واحد مريض ، هو بييرو Piero . وكانت الأحوال السياسية والأقتصادية في فلورانسا قد أخذت تتبدل . وقد أحس كوزيمو في أخريات أيامه بتدهور أحواله الخاصة والعامة في فلورانسا . وكان يتمشى في قصره الكبير والفاخر ، ويناجي

نفسه : ماذا سيجري لكل ما حققت في حياتك يا كوزيمو ؟.

وعندما توفي كوزيمو المديتشي في ١٤٦٤ ، خلفه أبنه بييرو . وقد بدأ بييرو عهده بغلطة كبرى أثارت عليه أوربا ، وهددت أقتصاديات الأسرة وفلورانسا . فقد حاول أن ينقذ أحواله الأقتصادية المتدهورة ، بمطالبة دائنيه جميعاً بسداد ما عليهم من ديون . وتناسى أن أحوال الدائن ترتبط دائماً بأحوال المدين . وأن أحوال الأول لا تنتعش ، إلا بأنتعاش أحوال الثاني . وقد أضطر بييرو بعد ذلك للتراجع ، بعد أن عارضه وعصاه الجميع . وقامت ضده ثورتان مسلحتان ، فشلتا واحدة بعد الأخرى .

وكانت شهرة فلورانسا قد بلغت في ذلك الوقت ذروتها . ولكن تجارتها في شرقي البحر الأبيض المتوسط كانت آخذة في التراجع . وقد أخذ الأنجليز يغزلون الصوف بأنفسهم . والفلمنكيون يصبغون أنسجتهم، بدلاً من إرسالها كي تصبغ في فلورانسا . وأضطرت عائلة المديتشي إلى أغلاق بنكها في لندن عام ١٤٧٨ . وأوقفت في ١٤٨٣ عملياتها في

التنقيب عن البوتاس في روما .

وقد توفي بييرو صغيراً عام ١٤٦٩ ، وخلفه أبنه لورانزو Lorenzo . وقد قيل أن لورانزو كان يسعى دائماً إلى « المجد والرفعة ، ويتميز بالطموح حتى في أصغر الأشياء ». وقد لقب بالعظيم . وكان يكتب الشعر ، ويؤلف الأغاني . وقد فهم ضرورة إلهاء عامة المدينة بالمهرجانات والأحتفالات ، كي يبتعدوا عن السياسة . ومما كتبه لورانزو عن نفسه :

« بعد يومين من موت والدي ، ورغم أنني ، أنا ، لورانزو ، كنت صغيراً جداً ، ولم يتعد عمري الواحدة والعشرين ، جاء أشراف المدينة الجمهورية إلى منزلي لعزائي ، ولتشجيعي على تحمل أعباء الحكم فيها ، الذي حمل عبئه والدي . ولما كان في أقتراحهم مخالفة لما نشأت عليه في صباي ، وبأعتبار أن الخطر على حياتي من السير في خطى والدي كان كبيراً ، فقد ترددت . ولكنني أضطررت ، رغماً عني ، إلى الموافقة على رأيهم ، لحماية أصدقائي وأموالهم ، ومن دون أن أحكم المدينة حكماً فعلياً ».

وقد أمتحن لورانزو ، في بداية حكمه ، بفتنة جديدة ، هي فتنة باتزي . فأن هذه العائلة الأرستقراطية كانت تنافس عائلة المديتشي في أعمالها، وفي حكم فلورانسا . وقد توصل أحد أبنائها إلى أتفاق مع عائلة البابا سيكتس الرابع ، تقوم بموجبه العائلتان (البابا وباتزي)

بالتخلص من أهم أفراد عائلة المديتشي ، وأقتسام حكم المدينة بينهما . وقد أجتمع المتآمرون في أبريل عام ١٤٧٨ في قصر لورانزو ، أثناء حفل سنوي كبير . ولكنهم أضطروا لتأجيل مؤامرتهم لغياب چوليانو ، شقيق لورانزو ، عن الحفل . وفي أثناء الأحتفال الديني في اليوم التالي، لم يحضر چوليانو أيضاً لمرضه . ولكن المتآمرين ذهبوا إليه في منزله ، وأنهضوه من سريره عنوة ، ثم أخذوه إلى الكنيسة ، حيث قتلوه في مذبحها . وكان لورانزو قد أحس بالمؤامرة التي تجري حوله . فقاوم المتآمرين . وهرب منهم بعد ما جرحوه . ثم أستنفر أعوانه ، فساعدوه على قمع المؤامرة ، والتغلب على المتآمرين . وقد قتلت عائلة المديتشي خلال الأيام التالية كل من كان له علاقة بمؤامرة الباتزي ، وسجنوا ونفوا الباقين . وبلغ عدد الجثث التي ألقيت في نهر أرنو في تلك الأيام القليلة ٢٧٠ جثة . والطريف أن لورانزو قد منع نساء الباتزي بعد ذلك من الزواج ، وأصبح يتدخل في كل زيجة تعقد بالمدينة ، حتى يضمن إنقراض سلالة أعدائه .

وقد حاول البابا سيكتس الرابع أن ينتقم من عائلة المديتشي ، ومن فلورانسا ، بعد فشل مؤامرته مع الباتزي . فـ «حرم» أهل المدينة جميعاً. ومنع الأتجار معها . ولكن قسس المدينة أنضموا إلى شعبها ضد البابا . وحارب الفلورانسيون جيوش البابا وحلفائه من أجل حريتهم . ثم أستطاع لورانزو أن يستميل إليه بعض أنصار البابا ، ومن بينهم دوق ميلانو .

حتى عادت الأمور إلى طبيعتها بين فلورانسا وحلفاء البابا .

ولكن ما أن أنتهت فتنة الباتزي ، حتى شدد لورانزو قبضته على الحكومة . وأتخذ لنفسه حراساً من الرجال المسلحين . وأستبد بالحكم أستبدادا كاملاً وسافراً . وكان لورانزو يفضل صحبة الفلاسفة . وقد أتخذ من ديلا ميرانديلا ، وڤيشينو ، وبراتشيوليني ، وبوليتيان ، أصدقاء حميمين . وقد درس الأخير أولاده . وتشاجر مرة مع زوجة لورانزو ، فمنعته من تدريس أبنائها ، وأخذت منه كتبه . ولكن لورانزو تدخل ، بحكمته ودبلوماسيته في الأمر ، وصالح بينهما .

وقد أشترى لورانزو تمثالاً أثرياً لأفلاطون ، ووضعه في صدر الأكاديمية . وكان يقول : « عندما يتعب عقلي من الأشتغال بالشئون العامة ، وتضج أذني من شكاوي الناس ، ألجأ إلى الفلسفة كي تجدد بحوثها قواي » .

كذلك أستخدم لوراتزو نحاتاً خاصاً ، هو برتولدو ديه چيوڤاني Bertholdo (١٤٢٠ / ١٤٩١) للأشراف على تماثيل قصره ، وتدريب أبنائه على النحت ، في مدرسة خاصة أقامها في دير سان ماركو . وقد عمل لديه أيضاً دوناتيلو وبوتيتشيلي سنوات طويلة . وكان لكل منهم راتب أسبوعي يتسلمه آخر كل أسبوع من بنك المديتشي بفلورانسا .

وقد أهتم لورانزو أهتماماً خاصاً بجامعة فلورانسا ، وأنشأ لها فرعاً في بيزا . ولكنه أغرم - على ما ذكرنا - بالحفلات والمهرجانات . وإيفاد

البعثات الدبلوماسية المتكررة إلى أنحاء أوربا ، في الوقت الذي ساءت فيه - على ما قال ماكيافيلي - أحواله المالية لسفاهة وكلائه في خارج إيطاليا ..

« ومع أن فلورانسا لم تتمتع بالحريات خلال حكم لورانزو ، فقد كان صعباً أن تعثر على طاغية أفضل أو أخلص لها منه . فمن طيبته ودبلوماسيته ، أستمدت المدينة منافع كثيرة . وظلت مثاقب طغيانه مؤقتة ومحدودة ».

وكان لورنزو محباً للنساء ، منغمساً في الجنس . وقيل أن هذا كان سبب ضعفه المبكر ، ووفاته صغيراً . وكان يتعلق مدداً غير قصيرة بكل عشيقة جديدة من عشيقاته . ثم يستبدلها بغيرها . وقد كتب جويتشارد ياني في ذلك :

« وكانت مارتيلوميا ديه ناس من آخر عشيقات لورنزو . ولم تكن جميلة ، وإنما كانت رصينة . ومع ذلك ، فما أسخف أن يتعلق رجل في مثل مقامه وشهرته ، وفي الأربعين من عمره ، بامرأة ليست جميلة ولا صغيرة ، وبطريقة يخجل منها الصبي ».

وعندما ساءت أحوال فلورانسا المالية في آواخر حياة لورانزو ، أضطر إلى سحب كثير مما بقي من أمواله في أوربا ، وتوظيفها في عقارات المدينة . ثم خفضت فلورانسا عام ١٤٩٠ عملتها إلى الخمس ، مع أن تلك العملة كانت أقوى وأثبت عملات أوربا . ولما زادت الأحوال

الأقتصادية سوءاً ، لم تستطع فلورانسا أن تدفع أجور مرتزقتها الكوندوتييري . وكانت جيوش فرنسا قد هبطت على أيطاليا لغزوها . وثارت بيزا ، وطردت الفلورانسيين منها . ثم أستنجدت عليهم بالقوات الفرنسية .

وقد أحس فقراء فلورانسا بالذات بتدهور أحوالها الأقتصادية، وقامت فيها أضطرابات كثيرة . وظهر بينها جيرولاما ساڤونارولا Savonarola (١٤٥٢ / ١٤٩٨م) . وكان راهباً دومينيكياً ، نشأ في فيرارا ، وعاش أكثر حياته حبراً في فلورانسا. وقد أنتهز ساڤونارولا فرصة سوء الأحوال الأقتصادية في المدينة ، وتصاعد متاعب العامة والفقراء ، كي يحرضهم على الأغنياء . ويثير « المسيحيون الطيبون على رجال الدين الفاسدين ». وكان ساڤونارولا يلعن كل ما هو «دنيوي» ويستعيد صور الشيطان والجحيم . ويجعل الجماهير التي تستمع له تبكي وتولول . وقد عادى البابا « والرهبان الكسالى» . ثم أحتمى بالفرنسيين .

وقد أبدى ساڤونارولا مقته الشديد للفلاسفة ، وقال : « إن أي أمرأة عجوز وجاهلة ، تعرف أضعاف ما يعرفه أفلاطون ». وكانت عصاباته من الغلمان الذين غرر بهم ، تهاجم المقامرين ، والبنوك ، ورجال الدين ، مثل مهاجمتها لبائعي الحلوى ، وللسيدات المتأنقات أو المتزينات .

وكان ساڤونارولا يخطب من فوق منابر فلورانسا ، وحتى من الدومو،

ومن منبر كاتدرائية فلورانسا . وكان يقول :

« إن الطغاة لاينصلحون ، لأنهم دائماً متعاظمون . محبون لمن يتملقهم . يكنزون الأموال . ويخربون بها ذمم الناس . ولا يراعون الفقير. أو يكبحون شهوة الغني . يريدون من الجميع أن يخدموهم ، فيما هو حق ، وفيما هو باطل . ويزيدون الضرائب كي ينفقوا منها على أستعباد الناس ».

وقد نشر سافونارولا - بمثل هذا الكلام المنمق والأجوف - إرهابه في كل مكان . وأضطر بيكو ديلا ميرانديلا إلى ممالئته . ويقال أنه قد أصبح بتأثيره راهباً دومينيكياً قبل وفاته . وترك بوتيتشيلي لهوه ومجونه ، وسار خلف سافونارولا . ويقال أن مايكل أنجيلو قد غش فيه هو الآخر بعض الوقت .

وكان لورنزو صبوراً مع سافونارولا . وقد حاول أستمالته . وأرسل اليه وفداً يمالئه ويترضاه . ولكن سافونارولا واجه الوفد بكلمات غاضبة: « قولوا للورانزو أن الرب سيعاقبه على جرائمه . وأنني لا أخشى ما قد يفعله بي . فمع أنني غريب هنا في فلورانسا (فقد نشأ كما أشرنا في فيرارا) وأنتم أصحاب البلاد، فأنني سأبقى هنا ، وأما أنتم فستذهبون ».

ويقال أنه عندما مرض لورنزو مرضه الأخير ، أرسل في طلب سافونارولا « كي يخلص روحه». ولكن سافونارولا أشترط عليه أن

يعيد الحريات لفلورانسا ، وأن يرد كل ما أخذه من أموالها . ويقال أن لورنزو قد وافق على الشرط الأول . ولكنه توفي قبل أن يوافق على الشرط الثاني ، وهو نبذ أمواله . وكان هذا عام ١٤٩٢ .

وقد خلف بييرو Piero والده لورنزو دوقاً على فلورانسا ، ولقب بالدوق « سيء الحظ ». لأن ثورة فلورانسا أندلعت بعد عامين من توليه الحكم . نطرد منها عام ١٤٩٤ جميع أفراد عائلة المديتشي . ونهبت العامة قصورهم وأموالهم . ودمرت كثيراً من تماثيلهم ورسومهم . وطرح الباقي منها في مزاد علني أقيم عام ١٤٩٥ ، وأشترك فيه الأفراد والمدن الأيطالية الأخرى .

وتمادى سافونارولا في أعماله ، وأصبح يلفق الأدعاءات ، ويخترع الأكاذيب في وصف معجزاته . ومن هذا أدعاؤه القدرة على أن يسير وخلفه أتباعه فوق النار المشتعلة . ولكن أهالي فلورانسا أكتشفوا في أحد أيام عام ١٤٩٨ كذب هذا الأدعاء بالذات . فبدأت الثورة عليه . وسجنوه في أحد الأبراج . ويقال أنهم قد عذبوه في سجنه . وأنه قد أعترف لهم بأنه قد كذب عليهم ، كي يثبت لهم عظمته .

وقد قتل سافونارولا وبعض أتباعه عام ١٤٩٨ . وكتب لاندوتشي عن قتله وحرقه:

« وبعد ساعات ، كان قد تم حرق سافونارولا وأتباعه . وتساقطت أطرافهم في النار . بينما بقيت بعض أجزاء جسمهم معلقة في السلاسل.

وقد ألقيت على هذه الأجزاء الأحجار ، فوقعت هي الأخرى في النار ، حتى لايجد أحداً من أنصارهم شيئاً باقياً من جثثهم . ثم أستخرجت فضلات جثثهم ، وقطعت بالسكاكين ، ثم ألقيت مرة أخرى في النار . وأستمروا يقلبونها فيها ، حتى لم يبق منها شيء . ثم أحضروا العربات التى تجرها الجياد ، وجمعوا رماد الحريق وأحجاره فوق تلك العربات ، وقادوها حتى منتصف جسر ڤيتشيو فوق نهر أرنو ، وألقوا بها كلها في مياه النهر . فلم يعد يبقى من جثث سافونارولا وأعوانه شيء على الأطلاق ».

وقد عادت أسرة المديتشي إلى فلورانسا عام ١٥١٢ ، بفضل البابا ليو العاشر . وكان هو نفسه من أسرتهم . ولكن الجمهورية أعلنت فيها مرة أخرى بين الأعوام ١٥٢٧ و ١٥٣٠ . ثم أستتب الأمر لأسرة المديتشي مرة أخرى . ولكن الأحوال لم تعد فيها بعد ذلك إلى ما كانت عليه . فأن فلورانسا كانت قد خسرت تجارتها وبنوكها . وفقدت أموالها وكنوزها . وقد فشل مرتزقتها الكوندوتييري في إستعادة بيزا . وحاول حاكمها الجديد كوزيما Cosima أن يعيد للمدينة ولأسرة المديتشي فيها ، أمجادهما . ونجح في هذا إلى حد ما ، حتى لقب بالدوق الكبير . ولكن سنوات فلورانسا الذهبية كانت قد ولت . ودورها في الرينسانس كان قد أوشك على الأنتهاء .

هذا إذا أستثنينا علم التاريخ ، الذي تقدمت أموره (كما هو الحال

دائماً ، مع تراجع الأحوال) فظهر نيكولو ماكياڤيلي Machiavilli (١٤٦٩ / ١٥٢٧) الذي نتحدث عنه في كتابنا الخاص به في هذه السلسلة . ثم فرانسيسكو چيوتشيارديني Guicciardini (١٤٨٣ / ١٥٤٠). وقد تابع چيوتشارديني مذهب ماكياڤيلي الواقعي ، ونظرته العصرية للتاريخ . وخدم عائلة المديتشي في فلورانسا ، ثم بابا روما . وكان « أول من محص ورتب الوقائع والأحداث ، وأستخدمها في كتابة التاريخ ».

مايكل أنچيلو : ناحت وراسم الأنسان

ولد مايكل أنچيلو* Michelangelo في مدينة فلورانسا عام ١٤٧٥ . وكان والده سليل أسرة رفيعة ، ولكن فقيرة ، من أسر المدينة . وقد لاحظ والد مايكل أنچيلو على أبنه تعلقه بالرسم ، فلم يسترح لذلك. إذ لم يجد في ذلك العمل شرفاً لأسرته . ولكنه لم يمنعه عنه . وألحقه في صباه بمعمل الرسام جيرلاندو Ghirlando ، فبقي فيه ثلاث سنوات . ثم تركه ، وهو في السادسة عشرة من عمره إلى مدرسة برتولدو ديه چيوفاني في حدائق سان ماركو . وجدير بالذكر أن مايكل أنچيلو قد أستمر يعامل والده بالحب والأحترام طول حياته . ويرسل له في أخريات أيامه ، عندما تيسرت أحواله ، النقود ، طالباً منه الدعاء له . كما ظل يجل لورانزو المعظم ، حاكم فلورانسا ، ويعتبره « كوالدي ».

وقد لفت مايكل أنچيلو إليه أنظار أستاذيه جيرلاندو وبرتولدو ، وحاميهما لورانزو المعظم . وكتب في شبابه بعض أشعاره العاطفية ،

---

* أنظر كتابنا « مايكل أنچيلو » في هذه السلسلة .

التي توقف عن كتابتها بعد ذلك . ولكنه ظل محافظاً على الطرز الكلاسيكية ، ولم يقم بأية أعمال فنية كبيرة طوال سنواته الأولى في فلورانسا . بأستثناء لوحة « كيوبيد النائم » التي دفنت في الأرض - على ما أشرنا - فترة ، ثم بيعت بثمن باهظ لأيزابيلا دايست دوقة فيرارا .

وعندما توفي لورانزو المعظم عام ١٤٩٢ ، ثم نفي أبنه بييرو بعد ذلك بعامين إلى خارج المدينة ، ترك مايكل أنجيلو فلورانسا وذهب إلى بولونا . فعمل هناك فترة قصيرة في قوس سان دومينيك . ثم ذهب في صيف عام ١٤٩٦ إلى روما .

وقد طرح مايكل أنجيلو عن نفسه ، منذ وصوله إلى روما ، نزعته الكلاسيكية الأولى . وبدأ نزعته الجديدة في « التعبيرية غير الكلاسيكية ». وتعتبر لوحته « باخوس» من أولى أعماله الجديدة في روما . وقد تعجب النقاد - كما يقول كينث كلارك - من النظرة الهائمة والحالمة فيها . وتساءلوا : كيف أستطاع مايكل أنجيلو أن يضمنها كل هذه التوترات ؟.

وكان مايكل أنجيلو قد جاء إلى روما ومعه خطاب توصية من لورانزو ، أبن بييرو المديتشي ، إلى الكاردينال سان چورچيو . وقد قدمه سان چورچيو إلى كاردينال آخر هو چاكوبو جالي ، الذي كلفه بنحت «باخوس ». ثم كلفه الكاردينال الفرنسي بيليرس بنحت « البيتا » .

وتعتبر « البيتا » أولى أعمال مايكل أنچيلو الكبيرة والعظيمة . وهى تمثل الجمال الأغريقي في قالب غوطي . وتتألف من تمثالين رخاميين في قطعة واحدة : للمسيح مستلقياً على رجلي العذراء . وقد تعجب مشاهدو التمثال بعد ذلك ، عن الكيفية التي تظهر بها العذراء « بهذا الجمال والشباب » وعلى رجليها أبن بالغ . وأجاب ڤازاري على لسان مايكل أنچيلو : « إن الجمال لا يفارق الفضيلات . والكمال المادي الذي نراه في تمثال مايكل أنچيلو ، صورة من سمو ونقاء الروح ، التي أراد الفنان تصويرهما في العذراء .. لأن الروح عند مايكل أنچيلو هي الشكل » .

ويقال أن مايكل أنچيلو قد عاش خلال سنوات زيارته الأولى لروما عيشة التواضع ، وأحياناً الضنك . وأنه كثيراً ما لجأ إلى والده في ذلك الوقت ، كي يرسل له نقوداً . ولكن أحواله تيسرت بعد ذلك ، حتى أشترى الضياع . وإن ظل يسكن حتى أخريات أيامه منزلاً غاية في التواضع .

وقد عاد مايكل أنچيلو عام ١٥٠١ إلى فلورانسا . وطلب اليه زعماء الجمهورية الجديدة فيها ، أن ينحت لهم تمثالاً يعبر عن « القوة والمثالية والحرية » في جمهوريتهم . وقد نحت لهم مايكل أنچيلو تمثال «داڤيد » من قطعة هائلة من الرخام ترتفع زهاء خمسة أمتار . وكان من المقرر أن يوضع التمثال في كاتدرائية فلورانسا . ولكن شعب المدينة

نصبه في ميدان قصر الحكومة . وصنع مايكل أنچيلو بعد ذلك لمدينة فلورانسا لوحة « معركة كاشينا ». وهى تمثل مجموعة من الرجال ، يقوم كل منهم بحركة جسدية مختلفة ، أختارها مايكل أنچيلو « لأظهار دقتها ، وسمو صاحبها ، ويمثل مجموعها حركات الأنسان ». وقد أسماها ڤازاري « مدرسة العالم ». وأعتبرها تشيلليني « أعظم أعمال مايكل أنچيلو». ويلاحظ أن الأنسان ، بل الأنسان العاري ، بأكتافه العريضة ، وعضلاته المشدودة ، وحركاته الطبيعية ، قد أستمر موضوع مايكل أنچيلو الأساسي طوال حياته .

ورسم مايكل أنچيلو بعد ذلك لوحة « العائلة المقدسة ». ثم لوحة «قصر ڤيتشرو ». وتمثل الأخيرة أندهاش الجنود من مفاجأتهم لبعض المستحمات العاريات . وقد صور مايكل أنچيلو ملامح الأندهاش ، وأوضاع وعضلات الجنود والمستحمات ، أبلغ وأجمل تصوير .

ثم أستدعى مايكل أنچيلو في مارس ١٥٠٥ إلى روما . يقول ڤازاري :

« وكانت شهرة مايكل أنچيلو قد ذاعت بسبب نحته للبيتا في سانت بيتر ، ولداڤيد في فلورانسا ، ولصنعه للوحة كاشينا ، فأرسل له البابا يوليوس الثاني يستدعيه كي يبني له مدفناً . ولم تكن سن الفنان قد جاوزت وقتذاك عامه التاسع والعشرين ».

وليس من شك أن البابا يوليوس الثاني (١٤٤٣ / ١٥١٣) كان من

أعظم باباوات روما وأشدهم شكيمة . وقد أحب مايكل أنچيلو ، وقدر أعماله . ولكن العلاقة بينهما كانت على الدوام متوترة ، وكثيراً ما كانت عاصفة . وقد ذهب مايكل أنچيلو في بداية عمله في روما ، في ١٥٠٥ ، إلى محاجر كرارا الرخامية . فبقي فيها زهاء ثمانية شهور ، أنتقى خلالها الأحجار التي سيستخدمها في بناء مقبرة البابا . ويقال أنه كان يجد في زياراته المتكررة لكرارا ، وأنتقائه بنفسه لأحجار تماثيله ، لذة وترويحاً وفائدة .

وكان مشروع مايكل أنچيلو لهذه المقبرة يتضمن صنع ٤٠ تمثالاً رخامياً بالحجم الطبيعي . وقد قدر أن هذا العمل سيأخذ منه ٢٠ عاماً . ولكنه لما عاد إلى روما ، طلب أن يرى البابا . فمنعه المحيطون بالبابا عن رؤيته . فكتب مايكل أنچيلو رسالة للبابا يقول فيها :

« الأب المعظم – لقد منعوا دخولي إلى حضرتك اليوم بأوامر منك . ولهذا ، فإذا أردتني ، فيجب أن تبحث عني فى مكان آخر غير روما » .

ثم ترك مايكل أنچيلو روما ، وعاد إلى فلورانسا . وأرسل البابا يوليوس الثاني يستدعيه مرات . ولما لم يجد صدى لدعواته ، أرسل لمدينة فلورانسا يتهددها ، إن هي لم ترسل إليه مايكل أنچيلو . وعندما فتحت جيوش البابا بولونا بعد ذلك ، ودخلها البابا دخول الفاتحين ، ذهب إليه مايكل أنچيلو طالباً غفرانه . ثم صنع له تمثالاً من البرونز ، وضع في كنيسة سان بيترونيو في بولونا (وقد دمر هذا التمثال بعد

ذلك).

ثم عاد مايكل أنچيلو إلى فلورانسا ، وبقي فيها شهران ، قبل أن يتوجه للبابا في روما . ويقال أن البابا يوليوس الثاني قد سأله عندما رآه ، عن سبب تركه العمل الذي كلفه به . فأجابه مايكل أنچيلو: القرف . وحينئذ تدخل أحد الكرادلة ، وقال للبابا في محاولة لتلطيف الأمور : لا تلتفت غبطتك إلى مايقول . فهو جاهل . وكل الفنانين كذلك . ولكنه ما كاد يتم كلماته ، حتى تهاوت فوق رأسه لكمات مايكل أنچيلو .

وقد ذكر فازاري أن مايكل أنچيلو كان شديداً مع معاونيه . وأنه لم يكن بأقل شدة مع نفسه . وأنه صارحه بأنه لو لم يتهاون فيما يقبله أحياناً من أعمال ، لما أتم شيئاً على الأطلاق . وذكر فازاري أيضاً أن مايكل أنچيلو كان يرفض إصلاح أو تعديل العمل . وكان يطلب إلى صاحبه ، أن يكلفه بصنع آخر جديد .

وعند عودة مايكل أنچيلو إلى روما ، كلفه البابا يوليوس الثاني بأن يترك العمل في مدفنه ، وأن يبدأ في تزيين سقف مذبح السستين . وقد أعتبر مايكل أنچيلو الرسم في سقف مذبح السستين عملاً غير ملائم له. وكان يقول : أنني نحات ، ولست رساماً . وقد ظن أن تكليف البابا له بالرسم ، قد جاء بأيعاز من عدويه الرئيسيين في روما : الفنانان برامانتي وسانزيو . ولكنه لم يرفض العمل في السيستين . وبدأ يرسم ، طوال السنوات الأربع التالية في سقف المذبح ، مستلقياً على ظهره ،

وقد ثبت شمعة مضيئة على جبهته ، وفرشاة الرسم بين أصابعه . وكان البابا يتعجله . وقد صعد إليه في إحدى المرات فوق السقالات ، وضربه بعصاه .

وعندما أنتهى مايكل أنچيلو من سقف مذبح السيستين ، في أكتوبر ١٥١٢ ، وأزيحت الستائر والسقالات ، أسرع الجميع لرؤية رسومه . ويقول فازاري : أنهم قد وقفوا أمام الرسوم مبهوتين . لأن مايكل أنچيلو قد أستطاع أن يصنع سمفونية بابلية رائعة لمراحل تطور الأنسان .

وقد كتب الفيلسوف الألماني جيته بعد ذلك بقرون في وصف رسوم مايكل أنچيلو بالسيستين :

« إن من لم ير سقف مذبح السيستين ، لايستطيع أن يقدر المدى الذي يمكن لذكاء الأنسان أن يبلغه . إن وثوق الفنان من نفسه ، وقوته، وعظمته ، تفوق الوصف . وقد أسرني مايكل أنچيلو برسومه ، حتى أن الطبيعة لم تعد تستهويني ، إذ يخيل إلي أن قوة بصيرتها لم تعد تبلغ عندي قوة بصيرته ».

وكان مايكل أنچيلو يصمم جميع أعماله بنفسه . ولم يكن يقبل أن يُعَطى ، كغيره من الفنانيين ، تصميماً أو برنامجاً يقوم على تنفيذه . حتى وإن كان قد وضعه له صاحب العمل أو أحد الفلاسفة أو الشعراء . ويقال أن مايكل أنچيلو قد قام بتصميم رسوم سقف مذبح السيستين خلال تقدمه في رسمها . وأنه قد أراد منها أن تصبح « فلسفة

أفلاطونية جديدة» لا مجرد قصة لتطور الأنسان . ولذلك فقد « أنهى » رسومه بقصة الخلق ، ولم « يبدأها » بها ، كما كانت عادة الفنانيين . والزائر للمذبح يرى عند دخوله سكرة نوح « التي يظهر فيها طغيان الجسم على الروح ». ثم تتوالى المناظر ، حتى تنتهي بالخلق . ويقال أن مايكل أنجيلو قد أراد بهذا الترتيب أن يصور « تطور الروح ، من عبودية الجسم إلى الحرية ».

ويقال أن « عدوي » مايكل أنجيلو : برامانتي وسائزيو ، كانا يتلصصان عليه خلال عمله في سقف المذبح . وأنهما (وأيضاً رافاييل) كانوا قد بدأوا « يستعيرون » من أعماله ، قبل أن يزاح الستار عنها . ويقال أن البابا يوليوس الثاني قد سأل مايكل أنجيلو يوماً عن رأيه في أعمال رافاييل . فأجابه مايكل أنجيلو : أنه قد أخذ أجمل ما في فنه عن أعمالي . ولكن الأنسان لا يستطيع أن يطير بأجنحة غيره .

وقد عاد مايكل أنجيلو ، بعد ما فرغ من سقف مذبح السستين إلى عمله الطموح في بناء مقبرة البابا يوليوس الثاني . وأستمر في هذا العمل ، يتركه ، ويعود اليه ، طوال أربعين عاماً . وعندما توفي البابا يوليوس الثاني ، وكلف البابا الجديد ، كليمنت السابع ، مايكل أنجيلو بأعمال أخرى له ولأسرته : المديتشي ، كان مايكل أنجيلو يعود بين كل عمل وآخر إلى مقبرة يوليوس الثاني ، فيعمل فيها بجد وأخلاص . وقد توفي مايكل أنجيلو قبل أن يتمها . فأتمها له تلاميذه .

ويعتبر تمثال «موسى» المنحوت من الرخام الأبيض أروع التماثيل الكبرى في المقبرة . وقد جعل مايكل أنچيلو لتمثال موسى قرنان صغيران في مقدمة رأسه ، كما تحدد الأساطير اليهودية . وثنى يده اليمنى فوق الوصايا ، وترك اليسرى تعبث بلحيته الطويلة والمتدلية على أرجله . وكان العالم النفسي الكبير سيمجوند فرويد* من أكثر الناس إعجاباً بهذا التمثال . وكان يضع نسخة كاملة منه أمامه على مكتبه ، ينظر اليها وهو يعمل .

وقد كُلف مايكل أنچيلو منذ عام ١٥٢٠ ببعض الأعمال الهندسية . فعمل في مدفن كنيسة سان لورانزو بفلورانسا . وتعتبر تماثيله الأربعة ، للنهار والليل والفجر والغسق ، من أجمل ما تركه هذا الفنان الكبير . ثم أتم قبة سانت بيتر في روما ، متأثراً فيها - على ما ذكرنا - بقبة برونيليتشي في فلورانسا . كذلك صمم ميدان ديل كامبيدوجليو بروما . ويقال أنه قد مهد بأعماله الهندسية للطراز الباروخي الذي سيطر على أوربا بعد ذلك . ويقال أن فنه كان « يُكمل » هندسته . فقد بنى قبة سانت بيتر ، ثم زينها من الداخل .

وقد عين مايكل أنچيلو عام ١٥٤٧ رئيساً لقسم الأعمال بكاتدرائية روما . فلم يحفل بوظيفته ، لأنه قد خلف فيها - على ما قال فازاري - برامانتي وسان جالو . وكان مايكل أنچيلو يعتبر نفسه أعظم منهما .

---

* أنظر كتابنا « فرويد » فى هذه السلسلة .

وبالأضافة إلى ذلك ، فقد قام بتصميم تحصينات مدينة فلورانسا . ونفذ واجهة مكتبة سان لورانزو . وأتم روائع كثيرة ، من بينها تمثال « العبد » غير المكتمل .

وقد عاش مايكل أنجيلو حياته عزباً . ولكنه عرف حين بلغ الستين من عمره السيدة فيتوريا كولونا . وكانت قد جاوزت الأربعين . « وكان حبه لها روحياً . وعندما ماتت ، ظن أن مباهج الدنيا كلها قد فارقته ». ولكن الأقاويل تناثرت فى حياة مايكل أنجيلو ، وبعد وفاته ، حول علاقة بينه وبين توماسو ديل كافاليير . وقد رسم مايكل أنجيلو صورة صديقه هذا ، في أحد أعماله الهامة : العشاء الأخير . ووصف أرتينو ، توماسو ديل كافاليبر بقوله : « توماسو نبيل صغير السن ، عرفته في روما . جسمه جميل ، ولباسه وزينته بالغة ، وأهوائه معروفة ».

وقد توفي مايكل أنجيلو في روما عام ١٥٦٤ عن ٨٩ عاماً .

أزدهار وأندثار الرينسانس فى ميلانو

هيمنت ميلانو على مقاطعة لومبارديا ، مثل هيمنة فلورانسا على المقاطعة التوسكانية . ولكن السلطات الفعلية أنتقلت في الأخيرة إلى أيدي التجار وأصحاب البنوك . بينما لم تتخلص في الأولى تماماً من الأقطاعيين . وقد ظلت عائلة فيسكونتي Visconti تحكم أنحاء مقاطعة لومبارديا طوال ٢٠٠ عام . وكان شعارهم الحية . وسياستهم ، كشعارهم، باردة وهادئة وماكرة . وقد ربطوا أواصر علاقاتهم بالعائلات الحاكمة في أنحاء أيطاليا بمصاهرات كثيرة . وحصلوا من باباوات روما على أمتيازات متعددة ، رفعت عائلتهم إلى مرتبة رفيعة .

وكان يحكم ميلانو في بداية الرينسانس برنابو Bernabo فيسكونتي . ويحكم باقيا شقيقه جاليزو Galeazzo . وكان التنافس بين الشقيقين قوياً . وكل منهما يحاول أن يزيد رقعة دوقيته على حساب الآخر . ثم توفي جاليزو عام ١٣٧٨ . وتولى أبنه جيان Gian من زوجته بلانش ، أميرة سافوي ، الحكم . وكان جيان قد تزوج من إيزابيلا ، أميرة الفالوا،

وهو في التاسعة من عمره . وأنجب منها أول أبنائه ، وهو في الرابعة عشرة من عمره . وعندما ماتت إيزابيلا ، حاول جيان أن يتزوج من وريثة العرش في صقلية . ولكن عمه ، برنابو ، وجد في هذا الزواج الجديد تهديداً له ولأبنائه الخمسة . إذ قد يؤدي زواج أبن أخيه بأميرة صقلية، إلى تحالف باڤيا وصقلية على ميلانو . وأصر برنابو على أن يتزوج أبن أخيه جيان ، بأبنته كاترين .

وكان جيان سياسياً حصيفاً ، ومحارباً شجاعاً ، ودارساً للثقافة ، ومحباً للعلوم . ولكنه كان جشعاً . ولم يكن يأبه لوازع أو ضمير في سبيل تحقيق أغراضه . وقد نافس سيزار بورچيا على لقب « أمير الرينسانس» الذي أطلقه مكياڤيلي على الأخير . فأنه بعد أن تزوج بأبنة عمه ، أخذ يعد العدة للقضاء على عمه وأولاد عمه . وقد تقبلت زوجته هذا المصير بفهم وسكوت .

وقد بدأ جيان مؤامرته بمحاولة « ترتيب أمور بيته ». فأصلح الأداة الحكومية في بياڤا . وقضى على الفساد والرشوة . وخفض الضرائب . وجعل من نفسه قدوة يحتذيها كل أبناء دوقيته . فلم يعرف اللهو أو الفراغ . وكان يقضي جل أوقاته في الحكم والمشاورة والدرس . كتب چيوتو :

« وكان جيان يميل إلى التأمل خلال تريضه الطويل وحيداً كل يوم . فاذا عاد من رياضته ، ناقش الخبراء في كل فرع من فروع المعرفة .

وكان يدرس الحوادث والعبر التي يقرأ عنها فى الكتب ، ويستعيدها في أحاديثه . ويجد راحته في قراءة الفلسفة ومحادثة العلماء . وأما اللهو واللعب ، والجري وراء النساء ، والتفرج على المهرجين ، فلم تكن مما يحب أن يضيع فيها جيان شيئاً من وقته ».

وفي ١٣٨٥ ، قاد جيان أتباعه حتى أبواب ميلانو . فخرج إليه عمه وبقية أسرته لأستقباله . ولكنه أسرهم جميعاً . ثم تخلص منهم . و« كانت شهرته فى صلاح الحكم وقلة الضرائب قد سبقته » إلى داخل المدينة . فخرج اليه أبناء ميلانو يهتفون : يعيش الدوق . وتسقط الضرائب .

ثم بدأ جيان ، بعد دخوله ميلانو ، يمد حكم دوقيته على أنحاء مقاطعتي لومبارديا وأومبريا الشماليتين . فأستولى على بيزا وسيينا وبيروچينا وبولونا . وكرر الأصلاحات التي قام بها في باڤيا في هذه المدن . وأقام الأبنية . وشجع العلماء والفلاسفة . وجعل من جامعة باڤيا واحدة من أهم الجامعات الأيطالية ، خصوصاً في القانون . وأستقدم إلى المقاطعة عدداً من رواد الرينسانس في فلورانسا وغيرها .

وطبيعي أن يؤدي نجاح جيان في ميلانو ، وأزدهار تلك المدينة بالأموال والعلوم والفنون ، إلى غيرة المدن المحيطة بها . وإلى محاولة بعض تلك المدن وضع العراقيل أمامه ، وحبك الأحلاف والمؤامرات ضده . وكانت فلورانسا على رأس تلك المدن المناوئة لحكم جيان في ميلانو .

وقد أخذت تؤلف الأحلاف ، وتعد المؤامرات ، وتحشد الجنود ، ضد هذه القوة التوسعية الجديدة . وتوعد كل منهما الآخر . حتى لم يعد لأحدهما حياة مع بقاء الآخر .

وفجأة ، في عام ١٤٠٢ ، توفي جيان . وتخلصت فلورانسا «بطهرها وصلاحيتها » من أهم أعدائها . وأقامت لهذه المناسبة الصلوات والأحتفالات .

وأما في ميلانو ، فقد أدى أختفاء جيان إلى عودة رؤوس الأقطاع للظهور . فنقض حكام المدن التوسكانية والأومبرية تحالفهم مع المدينة . وتحولوا إلى ممالأة فلورانسا والبندقية . وكان أبنا جيان ، المعروفان بأسم «الشقيقين ماريا » قد تبعاه في حكم المدينة . وكان الأول معروفاً بقسوته، حتى قيل أنه كان يغذي كلابه كل نهار بلحوم أعدائه الذين يتخلص منهم كل ليلة. وقد أغتيل هذا الأبن الأول أثناء الصلاة بأحدى كنائس المدينة عام ١٤١٢ . ثم تبعه شقيقه فيليبو ، الذي كان إلى جانب قسوته وجنونه ، مفرط السمنة ، حتى لم يكن يظهر لأحد من رعاياه و«يحكم من خلف ستار ».

وقد أستخدم فيليبو ماريا ، الكوندوتييري فرانسيسكو بسفورزا Sforza في حروبه . ثم زوجه من أبنته غير الشرعية بيانكا . وكان سفورزا جندياً قوي البأس ، ضخم الجسم ، قويم الأخلاق . وقد جمع حوله ثلة قوية من الجنود الأشداء والمخلصين ، وأقتطع لنفسه جزءاً طيباً من

أرض المقاطعة ، وأدخر من مهنته ثروة واسعة .

وكان سفورزا يطمع في حكم ميلانو . ويسانده في أطماعه ، بالنصيحة والأموال ، عدو الفيسكونتي في فلورانسا : كوزيمو مديتشي. ولكن عند وفاة فيليبو ماريا فجأة ، وكان سفورزا في مهمة خارج المدينة، هب أبناء ميلانو ، فألغوا الدوقية ، وأعلنوا الجمهورية في مدينتهم . فلما عاد إليها سفورزا ، وقف بأبوابها ينتظر تدهور الأحوال في داخلها ، ومعارضة المدن الأخرى ، كالبندقية وفلورانسا ، قيام الجمهورية في ميلانو .

وقد حدث ما توقعه سفورزا . فسرعان ما تهاوت الجمهورية في ميلانو ، ودخل سفورزا المدينة ، وسط ترحيب أهليها ، دخول الفاتحين . وأعلن نفسه دوقاً عليها . ثم حصل بعد ذلك على أعتراف أكثر الدويلات الأيطالية والقوى الأجنبية . وعاش حياة « أمبراطورية» حافلة بالمجد والرفاهية. ويقال أنه كان يركب حصانه كل صباح في طريقه للصيد ، ويجوب شوارع ميلانو ، محيياً أهليها بأسمائهم . وقد أقام في مدينته بلاطاً مرموقاً . وقيل أنه قد أوصى أبنائه بأن يعيشوا « بذكائهم وشعبيتهم ». وبأن يتركوا «نساء رجالهم . وألا يؤذوا أعوانهم . وألا يركبوا حصاناً متصلب الفم ». يريد : ألا يقسروا أحداً على شيء لايحبه .

وقد خلف جاليزو ماريا سفورزا Galeazzo Maria والده عند وفاته

عام ١٤٦٦ . وكان جاليزو قد تزوج شقيقة ملكة فرنسا . وكان يهوي حياة البلاطات . وقد جمع ثروة هائلة من المجوهرات ، التي كان يحب أن يعرضها بنفسه على ضيوفه . ويعبد الحفلات والمهرجانات . وقد بدأت في عهده أحتفالات ميلانو السنوية بيوم سانت چورج (الذي لاتزال تحتفل به للآن) . كذلك أحب جاليزو الموسيقى . وكان ينفق نهاره ولياليه في صحبة النساء . وقد أدى هذا إلى قتله في كنيسة المدينة على أيدي بعض من أساء اليهم في زوجاتهم . وجاليزو هو الذي بنى قلعة ميلانو Castello Sforzesco على غرار برج لندن .

وقد خلف جاليزو في دوقية ميلانو ، أبنه الطفل جيان Gian. وأصبح أخوه لودڤيكو Lodevico وصياً على أبن أخيه . ولكن العم سجن أبن أخيه ، صاحب الحق الشرعي ، في القلعة التي بناها والده . وعندما تزوج الدوق الطفل المسجون ، وأنجبت له زوجته وريثاً، تخلص العم من الأثنين معاً . ثم أعلن نفسه ، في ١٤٩٤ ، دوقاً على ميلانو . وقد لقب بالمور . وتزوج من بياتريس دايست ، أبنة دوق فيرارا وحفيدة ملك نابولي .

ويقال أن المور كان ذكياً وماكراً وقاسياً . وقد أحبه شعب ميلانو مثل حبهم لأبيه فرانسيسكو . وأنه قد حاول أن يتحكم في سياسات المدن الأيطالية المحيطة به . وكان على علاقات طيبة بالأمبراطور ماكسميليان والبابا ألكسندر . وقد زوج أبنة أخته ، بيانكا ماريا ، من الأمبراطور

ماكسميليان ، بعد أن أغراه بدوطة كبيرة مقدارها ٤٠٠٠٠٠ ديكات .

وقد ذُكر أن المور كان يفاخر بأنه أحد أبناء الشعب العصاميين، ممن صنعوا أنفسهم بأنفسهم . وأشتهر المور أيضاً بأنه كان من أعظم مناصري الرينسانس . وقد أحاط نفسه بأفضل فناني وشعراء وموسيقيي أيطاليا . وقد عمل له ليوناردو دافنشي (الذي سنتحدث عنه في الفصل التالي) وبرامانتي Bramante (١٤٤٤ / ١٥١٤) . فبنى له الأول تحصينات المدينة ، وشق القنوات لري زراعات الأرز الجديدة وقتذاك في أيطاليا . وأقام له برامانتي بنايات كثيرة ، من بينها كنيسة سانتا ماريا ديل جراتزي . وأشتهر بلاط المور بأنه كان يقدم في كل شهر كوميديا أو تراجيديا أو رواية جديدة على مسرح البلاط.

ويلاحظ أن السنوات الذهبية لميلانو كانت قد كادت أن تنتهي منذ عام ١٤٩٧ ، عندما توفيت بياتريس دايست . ثم أدى زواج السفورزيين بالفرنسيين ، إلى أعطاء الأخيرين حقوقاً في الدوقية . توسل بها الفرنسيون لا في السيطرة على ميلانو وحدها ، وإنما في السيطرة على جنوا أيضاً . وقد حاول لودفيكو سفورزا أن يستعين على الفرنسيين بالفلورانسيين والنابوليين ، فيما سمي بالأتفاق الثلاثي . ولكنه خسر النابوليين عندما تورط مع الفرنسيين في هجومهم التالي على نابولي . ثم عاد لحلفائه السابقين ، النابوليين ، وهاجم القوات الفرنسية بقيادة شارل الثامن ، عند تراجعها من أيطاليا إلى فرنسا . فخسر الفرنسيين.

ولم يستطع أن يحتفظ بصداقة النابوليين . وهذا لطمعه في نابولي ، ولمحاولاته المتعددة أغتصاب الحكم فيها .

وعندما توفي الملك شارل الثامن ، وتولى حكم فرنسا الملك لويس الثاني عشر ، تقدم الملك الفرنسي الجديد على رأس قواته إلى أيطاليا . ودخل ميلانو عام ١٤٩٩ . وتراجع لودفيكو سفورزا بفلول قواته إلى التيرول ، في الشمال الغربي . ثم عاد إلى ميلانو بعد أنسحاب الفرنسيين منها ، عندما أثاروا عليهم الميلانيين . ولكن الفرنسيين أعادوا أحتلال ميلانو مرة أخرى عام ١٥٠٠ . وقبضوا على لودفيكو سفورزا ، وأرسلوه سجيناً إلى فرنسا . وقد توفي لودفيكو في سجن أرضي فرنسي ، لا يدخله هواء ولا شمس، عام ١٥٠٨ .

وفي ١٥١٢ ، نقل المرتزقة السويسريون ماسيميليانو Massimiliano ابن لودفيكو ، والملقب بسيء الحظ ، من منفاه بألمانيا، ونصبوه دوقاً على ميلانو . ولكنه كان قد تربى تربية ألمانية خالصة ، حتى أصبح غريباً على الأيطاليين . وقد أغضب رعاياه بتصرفاته ، وبضرائبه الباهظة . ثم قبض عليه ملك فرنسا ، فرانسيس الأول ، عندما هزم الفرنسيون الأيطاليين في مارينانو ، ودخلوا ميلانو عام ١٥١٥ . ونفي فرانسيس الأول ماسيميليانو إلى فرنسا . فقضى بقية حياته مسجوناً بأحد القصور الفرنسية . وأستمر الفرنسيون يحتلون ميلانو سنوات ، حتى طردهم منها أخيراً الأمبراطور شارل .

ولد ليوناردو داڤنشي Leonardo da Vinci خارج مدينة ڤينشي، إلى جوار فلورانسا ، عام ١٤٥٢ . وكان والده عند ولادته لا يزال تلميذاً، يدرس الحقوق . وقد عرف والدته ، كاترين ، وهي تعمل خادمة في منزل عائلته . وقد بقي ليوناردو مع والدته سنوات حياته الأولى . ثم أخذ منها ، وكان والده قد أصبح محامياً . فعاش ليوناردو مع والده فترة صباه . وكان الوالد قد تزوج من سيدة أخرى . ثم تزوج بعدها مرات . ولم ينجب من زوجاته أبناء طوال العشرين عاماً التالية . فكان ليوناردو هو أبنه الوحيد حتي نهاية فترة شبابه .

ويلاحظ أن أتخاذ الرجال للعشيقات ، وإنجابهم منهن أولاداً غير شرعيين ، كان كثير الحدوث في أوربا خلال القرون الوسطى . ولم يكن الرجال أو أبنائهم يخجلون من هذا العمل ، بل كثيراً ما كانوا يتفاخرون به . وبأنهم كانوا عصاميين ، قد صنعوا أنفسهم بأنفسهم ، ولم يولدوا بملعقة ذهبية في أفواههم .

ومع ذلك ، فقد لاحظ برونويسكي أن ليوناردو « لم يتعايش» طوال حياته مع حقيقة أختلاف وضع والديه الأجتماعي . « فلم يكن يستريح لدخول منازل الأغنياء . كما أن علاقاته الجنسية قد أصبحت غير سوية . فأنه لم يحب أحداً من النساء . وظل يفضل صحبة الرجال الأقوياء . وقد ألغت الشهوة الفكرية عنده - كما قال هو نفسه - بقية شهواته ».

ويضيف برونويسكي أن ليوناردو قد أستمر طول حياته « يكره الحرمان ». وقيل عنه أنه كان يذهب إلى الأسواق ، فيشتري بما معه من نقود طيوراً، ثم يمسكها بيده برهة يتأملها فيها ، ويطلقها في الهواء.

وقد لاحظ والد ليوناردو أهتمام أبنه المبكر بالفنون . فأرسله منذ كان في الرابعة عشرة من عمره إلى أستديو الفنان ڤيروتشيو (الذي أشرنا اليه). وكان مرسم ڤيروتشيو أقرب إلى المعمل أو المصنع الصغير ، دائم الحركة ، وافر الزحام . وكان ڤيروتشيو ينحت فيه التماثيل ، ويصبها ، ويصنع الزخارف ، ويرسم اللوحات ، إلى غير ذلك .

وقد ترك ڤيروتشيو بعد ذلك الرسم إلى النحت والصب . وقيل أن السبب في هذا هو أنه قد أكتشف في مساعده ، ليوناردو ، رساماً أفضل منه . فترك له أتمام الرسوم ، وأتجه هو إلى الفنون الأخرى . ويلاحظ أن هذه « الملاحظة » قد قيلت عن عدد من فناني الرينسانس ، من بينهم رافاييل . ولكن مؤرخي الفن ، يشيرون إلى لوحة ڤيروتشيو «التعميد» التي يظهر في أحد جوانبها ملاك جميل أشقر الشعر ،

ويقولون أن ليوناردو هو الذي رسم ذلك الملاك الجميل ، والذي ينفرد ويتميز عن كل ما حوله في اللوحة . وأن رسمه لهذا الملاك في لوحة «التعميد » كان السبب المباشر لترك ڤيروتشيو الرسم .

وقد أتم ليوناردو تدريبه عند ڤيروتشيو حوالي عام ١٤٧٢ ، أي وهو في العشرين من عمره . وكان قد أصبح طويلاً وجميلاً ، وأشقر الشعر ، وجميل الصوت . وقد أستمر يرسم في فلورانسا . ولكنه هوى الرياضيات والميكانيات . وبدأ أهتمامه بالتشريح . ويلاحظ أن ليوناردو كان يستخدم في رسمه ، وأغلب أعماله ، يديه الأثنتين . ويقال أنه كان أيسراً . ويقال أنه قد لجأ لأستخدام يده اليسرى ، بعد ما أصيبت يده اليمنى في حادثة في صباه . وأنه ظل يستخدمها بعد ذلك للتظليل أو غيره من الأعمال الروتينية ، ويعتمد في خطوطه الأساسية على يده اليمنى .

وقد عمل ليوناردو بعد تركه ڤيروتشيو ، مع بوتيتشيلي (الذي أشرنا إليه أيضاً) . وحاول أن يمزج أحلامه الخاصة ، بالمقاييس الفنية الصعبة لهذا الفنان . وبدأ منذ هذا الوقت غرام ليوناردو برسم حركات الأحياء ، كالأنسان والطيور والقطط ، أثناء قيامها بأداء حركاتها المختلفة . ومن المواضيع التي شغلت ليوناردو بعد ذلك ، كيفية طيران الطيور . وأصل الرياح والسحب . وسبب تشقق الجدران . وطريقة صنع الأقفال الخ .

وفي ١٤٨٢ ، ترك ڤيروتشيو فلورانسا إلى البندقية ، كي يصنع



ليوناردو دافنشي بريشته

للكوندوتييري الشهير فيها كوليوتي تمثالاً له فوق حصانه ، وقد رفع الحصان أحدى ساقيه الأماميتين . ووجدها ليوناردو فرصة كي يكتب لدوق ميلانو ، لودفيكو سفورزا (المور) يعرض عليه أن يصنع لوالده ، الكوندوتييري فرانسيسكو، تمثالاً له فوق حصانه ، وقد رفع ساقيه الأماميتين معاً .

فوافق لودفيكو سفورزا على عرض ليوناردو . وسافر هذا اليه ، وخدمه طوال الأعوام العشرين التالية . ويقول برونوسكي أن السبب في ترك ليوناردو فلورانسا ، والذهاب إلى ميلانو ، هو أن فلورانسا كانت قد « حققت في ذلك الوقت نهضتها في أحياء الأمجاد « القديمة » . وأن ليوناردو أراد أن يبدأ في ميلانو أمجاداً آخرى « جديدة » ، تقوم على الأكتشاف ، وليس على الأحياء ».

وقد رسم ليوناردو للودفيكو عشيقاته . وصمم أزياء حفلاته . وزين قاعات قصره . وأقام أنظمة التدفئة الآلية بها . وعندما حضر ملك فرنسا لزيارة الدوقية ، بنى له ليوناردو أسداً ميكانيكاً يطلق الورود من فمه للأحتفاء به . كذلك شق ليوناردو القنوات . وصب المدافع . وأقام الأستحكامات في الدفاع عن المدينة . وأما مشروع أقامة تمثال فرانسيسكو سفورزا ، فلم يتم منه شيء . فبعد أن أعد ليوناردو تصميمات هذا المشروع ، والذي بلغ أرتفاعه ٢٦ قدماً (ولازالت رسومه باقية للآن على الورق) صنع لتصميماته نموذجاً من الطين . ثم أخذ يجمع

البرونز اللازم لصبه . ولكن هذا البرونز أستخدم بعد ذلك في صب المدافع لحروب ميلانو مع الفرنسيين . وعندما دخل الفرنسيون ميلانو عام ١٤٩٩ ، حطموا القالب الطيني الذي كان ليوناردو قد صنعه للتمثال . وجدير بالذكر أن ليوناردو كان يطلق على مشروعه هذا أسم « الحصان »، وليس أسم راكبه « فرانسيسكو سفورزا ».

ويلاحظ أن ليوناردو قد بلغ الذروة في الفن . ولكنه تميز عن كل فناني عصره بأنه كان « عالماً ومكتشفاً ، قبل أن يولد العلم ويعرف الأكتشاف ». وقد ترك ليوناردو ٥٠٠٠ صفحة من الأسكتشات والتصميمات ، لما تصوّره من مركبات حربية ، وطائرة ، وهيلكوبتر داورة، وباراشوت ، وكباري وهواويس ، وأجهزة قياس شدة الريح ، وأندفاع الماء ، ورقاص الساعة ، الخ . وبعض هذه الصفحات «معكوسة» ، أي لا يمكن قراءتها حتى توضع صفحاتها أمام مرآة ، فتظهر مقروءة . كذلك أهتدى ليوناردو ، قبل كوبرنيكوس ، إلى أن «الشمس لا تتحرك». وظن أن للصوت والضوء أمواجاً . وأكتشف أن الضوء الأحمر يخترق الضباب ، والأزرق لا يستطيع هذا .

وقد تعلم ليوناردو خلال أقامته في ميلانو اللاتينية . وأنفق كثيراً من وقته في دراسة التشريح . وتتضح دقته في هذا العلم ، من رسمه للأوعية الدموية في رأس الأنسان . « فأن صورتها تكاد تطابق الصورة التي تظهر لها حالياً بأشعة إكس ».

وقد كتب ليوناردو :

« وقد ذكر لي هذا الرجل قبل وفاته ، أنه قد عاش مائة سنة ، ولم يشعر طوالها بأي مرض جسمي ، فيما عدا بعض الضعف الجسدي . ولكن بينما هو جالس على سريره في مستشفى سانتا ماريا نوفا في فلورانسا ، إذا بالحياة تفارقه دون حركة أو علامة تدل على ضيق . وقد شرَّحت جسمه لمعرفة سبب وفاته الهادىء . وتأكدت أن الموت قد جاءه لضعفه . إذ توقف الدم عن المرور في الشريان الذى يغذي القلب وأجزاء جسمه السفلية ، التي وجدتها خلواً منه ، وذابلة ، ومنقبضة » .

وقد هرب ليوناردو مع صديق له وعالم في الرياضيات ، هو باتشيولي إلى فلورانسا ، عندما دخل الفرنسيون ميلانو عام ١٤٩٩ . وكان باتشيولي يؤلف كتاباً في الرياضيات ، ويقوم ليوناردو برسم رسوم الكتاب . وكانت فتنة سافونارولا في فلورانسا قد أنتهت ، وعاد إليها أيضاً فترة من الوقت مايكل أنجيلو . وقد كلفتهما المدينة ببعض الأعمال . ولكن أكثر ما أتمه ليوناردو من رسوم خلال هذه الزيارة قد لحقه التلف ، ككثير من رسومه التي قام بها في ميلانو . ويرجع السبب في هذا إلى أن ليوناردو كان يستخدم مواداً وأصباغاً مختلفة في التلوين ، ربما لتجربة تلك المواد والأصباغ . وقد قضت هذه المواد والأصباغ على أكثر لوحاته . فلم يبق لنا منها سوى أقل من ٢٠ لوحة . ولم يبق لنا من تماثيله شيء . وأهم اللوحات الباقية هي ولاشك «العشاء الأخير » التي

أتمها ليوناردو في ميلانو قبل دخول الفرنسيين . وقد وضعت في كنيسة سانتا ماريا ديل جراتزيا . وقد نقل ليوناردو في هذه اللوحة مكان يهوذا من طرف المائدة ، إلى جوار المسيح .

وقد رسم ليوناردو في زيارته لفلورانسا عام ١٤٩٩ ، صورته الشهيرة بأبتسامتها الغريبة « المونا ليزا » ، وكانت زوجة أحد تجار المدينة في هذا الوقت . وكان سيجموند فرويد قد لاحظ ، أن أبتسامات ليوناردو في أعماله الثلاث الشهيرة : العذراء ، وسانت آن ، والمونا ليزا ، واحدة . وأنه قد « قصد بها بلوغ جو الرقة والوداعة ، الذي كانت تعبر عنه أمه ، التي حرم منها في طفولته ».

ولم يمكث ليوناردو في فلورانسا طويلاً . فأنه عاد إلى ميلانو، وخدم الفرنسيين فترة . ثم خدم في روما منذ عام ١٥٠٢ سيزار بورچيا . ثم عاد عام ١٥٠٨ إلى ميلانو ، فخدم الفرنسيين وعميلهم الكوندوتييري تريفو لزيو . وبعد ذلك ذهب إلى روما ، لخدمة البابا ليو العاشر . وكان في روما في هذا الوقت مايكل أنچيلو ورافاييل . وقد كلف البابا ليو العاشر ليوناردو بعدة أعمال . ولكنه لاحظ - كما تقول الرواية - أن ليوناردو قد بدأ عمله في خدمته بأعداد ألوانه . فقال قولته الذكية : هذا الرجل لن يفعل شيئاً . لأنه يبدأ بالنهاية ، وليس بالبداية .

وقد بدأ ليوناردو في روما لوحته «سانت چيروم». ولم يتمها . ثم أخذ « يتسكع» حتى عام ١٥١٦ . وكان قد حوكم لأعمال منافية

للآداب في روما مع رفيقه چياكومو سالاي « الذي ظل يرسم وجهه القوي والجميل في لوحاته ، ويغفر له أخطاؤه وأساءاته إليه ». ثم ذهب إلى فرنسا ، بدعوة من الملك فرانسيس الأول . فعاش في أمبواز دون عمل تقريباً . وفي هذه الأثناء رسم صورته التي تصوره شيخاً صامتاً ومهموماً . وقد توفي ليناردو في فرنسا عام ١٥١٩ .

ويقال أنه كان قد كتب في بداية حياته :

« أريد أن أصنع المعجزات ، مع أنني ربما لا أتمتع بما يتمتع به غيري من الرجال القانعين ».

ولكنه عندما أحس في نهاية حياته بالضياع ، أخذ يكتب على هوامش مذكراته : « قل لي إذا كنت قد أتممت شيئاً مما أردت . قل لي إذا كنت قد أتممت شيئاً ».

والحق أن ليوناردو ، مع مواهبه الهائلة ، وعقله الثاقب ، وعيونه الفاحصة ، ويده الثابتة ، لم يتم إلا القليل مما أراد . بل القليل جداً . ولكن أكثر العظماء لا يتمون في العادة إلا القليل .

٢٠٠ عاماً من أمجاد الرينسانس في روما

أرتبط مصير روما طوال القرون الوسطى بمصير الفاتيكان . وتأثرت أحوال روما على الدوام بأهواء البابا الجالس على عرش الفاتيكان . لا لمركزه الروحي فحسب ، وإنما لثروته الكبيرة ، ولألتفاف فئات كثيرة من الناس حول بلاطه ، كالفلاسفة والفنانين والكتبة والمحامين والتجار . وعندما أنتقل باباوات روما المنفيين إلى أفينيون ، بفرنسا عام ١٣٠٩ ، أنتقلت معهم بلاطاتهم وثرواتهم . وكانت أفينيون وقتها قرية صغيرة ، لا يزيد عدد سكانها على ٥٠٠٠ شخص . فأضطر الكرادلة والفلاسفة والفنانون والكتبة والمحامون والتجار ، إلى سكنى بيوت الفلاحين . ونصب الخيام في شوارع القرية . وأخذ كثيرون منهم في سكنى المدن والقرى المحيطة بأفينيون . حتى بنيت فيها بعد ذلك القصور والمنازل اللائقة بهم .

وأما روما ، فقد حرمت خلال سنوات أنتقال البابوات إلى أفينيون من

بلاطات وثروات البابا . وسيطرت عليها القلاقل والأضطرابات . وأستأثر بشوارعها العامة من أبناء أسرها الثلاث في ذلك الوقت : أورسيني وكولونا وفراجيبياني، بالأضافة إلى جنود ملك نابولي والكوندوتييري براتشي الذين غزوها . وكان هؤلاء يمثّلون ، في كل يوم أيام السنة بعدد من أبناء المدينة : بقطع رقابهم ، أو القائهم من أبراج وبنايات المدينة ، أو إغراقهم بالأثقال في نهر التيبر .

وقد عادت البابوية إلى روما عام ١٣٧٧ . ولكن بابا آخر «مضاد» أستمر في أفينيون بين الأعوام ١٣٧٨ و ١٤٢٩ . وفي عام ١٤٠٩ ، نُصب بابا «ثالث»، إلى جانب بابا روما وبابا أفينيون «المضاد».

ثم أخذت الأحوال في روما تعود إلى طبيعتها منذ بداية القرن الخامس عشر . فعاد إلى روما بابا أفينيون . وأخذ الفلاسفة والفنانون والكتبة والمحامون والتجار ، يلتفون مرة أخرى حول الفاتيكان الروماني. وأخذ الحجاج المسيحيون يتدفقون إلى المدينة الخالدة . والضرائب التي حرمت منها روما طوال سنوات ، تصب في خزائنها مرة أخرى ، فينتفع بها الباباوات والرومانيون سواء بسواء .

* * *

وقصة الرينسانس في روما هي قصة الأعوام المائتين التي أعقبت عودة البابوية إليها . وقد تخللت هذه القصة ، كما هو طبيعي ، صفحات سوداء . أو على الأقل أقل بياضاً . فالبابا پول الثاني (١٤٦٤

/ ١٤٧١) كان يعتبر الأنسانيين الجدد وثنيين . والبابا كليمنت السابع (١٥٢٣ / ١٥٣٤) لم يكن يطيق رؤية الصور العارية على جدران الفاتيكان . وقد أمر بتغطيتها بالستائر . ومع ذلك فأننا لا نستطيع أن نعتبر هذين البابوين ، قاعدة لبابوات روما . وإنما هما على العكس ، الشذوذ عن القاعدة ، والتي أستمرت طوال مائتي عام .

وتبدأ قصة الرينسانس في روما بالبابا أينوسنت السابع (الذي تولى البابوية بين ١٤٠٤ و ١٤٠٦) الذي شهد ميلاد الرينسانس الأدبي والفلسفي في روما . وأستخدم ليوناردو بروني وبودچيو براتشيوليني (اللذين سبق الحديث عنهما عند الكلام عن فلورانسا). وقد خدم الأخير أيضاً البابا إيوچينيس الرابع ، ثم البابا نيكولاس الخامس .

وأعقب أينوسنت ، البابا مارتن الخامس (١٤١٧ / ١٤٣١). وكان رومانياً حازماً من أسرة كولونا . فأستطاع لمعرفته الوثيقة بالمدينة ، أن يقضي على الأضطرابات فيها . وقد بدأ برنامجاً لأصلاح مدينة روما ولأصلاح الكنيسة على السواء . ثم أعقبه البابا أيوچينيس الرابع (١٤٣١ / ١٤٤٧) الذي عقد مجلسي فيرارا وفلورانسا (اللذين أشرنا إليهما) لبحث أتحاد الكنيستين الشرقية والغربية . وأستقدم العالم البيزنطي بيساريون إلى روما . وقد عاش بيساريون في روما سنوات ، وأهدى مكتبته عند وفاته إلى البابا ، فأصبحت نواة مكتبة الڤاتيكان . ويلاحظ أن الأحوال في روما لم تكن قد أستقرت حتى هذا الوقت

أستقراراً كاملاً . فان أيوجينيس الرابع قد أضطر أن يهرب بنفسه بقارب صغير عبر نهر التيبر ، بعد أن تزيى بزي راهب . ثم عاش بقية حياته في فلورانسا ، بصحبة الفلاسفة والعلماء ، تاركاً أمر روما لأحد كرادلته الحازمين .

وقد أهتم البابا نيكولاس الخامس (١٤٤٧ / ١٤٥٥) بأزالة الأنقاض والخرائب المحيطة بالڤاتيكان ، وإعادة بنائه . فأستقدم المهندسين ألبرتي، وبرناردو روسيلينو Rosselino (١٤٠٩ / ١٤٦٤) لرفع أنقاض الكولزيم ، والتنقيب عن الآثار القديمة في موقعه . وبناء بازيلكا سانت بيتر الجديدة . وقد خدم روسيلينو بعد ذلك البابا نيكولاس الخامس ، وبنى له قصراً صيفياً وكنيسة صغيرة في بينزا .

كذلك عين نيكولاس : لورانزو ڤالا (الذي أشرنا اليه) سكرتيراً خاصاً له . وأستدعى اليه فرا أنچيلكو (الذي أشرنا إليه أيضاً) ليزين له مذبح كنيسته الخاصة . وقد ذكر ڤازاري أن الفنانين مازاتشيو وجنتيل دا فبريانو da Fibriano (١٣٧٠ / ١٤٢٧) وأنتونيو بيزانيلو Pisanello (١٣٩٥ / ١٤٥٥) قد عملوا جميعاً في روما منذ عودة البابا إليها . وأن نيكولاس قد أراد أن يجعل فرا أنچيلكو كاردينالاً لفلورانسا. ولكن فرا أنچليكو أقنعه أنه لايصلح لهذه المهمة .

وجدير بالذكر أن أسم نيكولاس قد أقترن بمكتبة الڤاتيكان . لأنه كان أول من أمر بجمع كتب الڤاتيكان ، وتغليفها تغليفاً ثميناً وموحداً

بالقطيفة الحمراء . وكتب على كعوبها أسماءها بالذهب .

وأما البابا پيوس الثاني (١٤٥٨ / ١٤٦٤) فكان توسكانياً، وقد درس في فلورانسا . وأعجب في شبابه بالمصلح الديني سان برناردينو . ثم ألتحق بخدمة الأمبراطور فريدريك الثالث . وقد أوفده الأمبراطور في عدة مهام دينية وسياسية ، جاب خلالها أنحاء ألمانيا وسويسرا والنمسا. وزار أنجلترا وأسكتلندا وفرنسا. ولم يكن پيوس يحرم نفسه في شبابه من متع الدنيا . وقد أعتبر، مع بترارخ (الذي تحدثنا عنه) من أوائل الرحالة الرومانسين . وقد ألتحق پيوس فترة بخدمة البابا المضاد فيلكس الخامس ، وأصبح سكرتيراً ومبعوثاً له . وفي أثناء خدمته هذه ، جاهر بالقول بأن سلطة المجمع الكنسي فوق سلطة البابا . ولكنه ذهب بعد ذلك، وهو في الأربعين من عمره إلى روما ، وحصل على غفران البابا أيوچينيس الرابع . ثم ترقى بسرعة ، فأصبح أسقفاً لتريستا ، ثم لسيينا، ثم كاردينالاً لسانت سابينا . وعندما أصبح في ١٤٥٨ بابا لروما ، أستنكر أهوائه الأولى . وأخذ يقول : أبقوا مع البابا پيوس ، وابصقوا من فمكم علي أسم أينيس. وكان أينيس هو أسمه ، قبل أن يصبح بابا بأسم پيوس الثاني .

وقد كتب پيوس لأحد أصدقائه ، بعد أن تقلد البابوية :

« أنا لا أنكر الماضي الذى عشته . ولكن العمر قد تقدم بنا ، وأصبحنا أقرب إلى الموت . وأنا أعلم أنني قد حدت فى شبابي عن الطريق القويم.

وارجو ألا يكون تصحيحي له قد جاء متأخراً ».

وقد أشتهر پيوس بعدة كتب دينية وأدبية وتاريخية ألفها بنفسه . من أهمها قصته « تاريخ حبيبين » وأعترافاته المعروفة باسم «التعليقات Commentarii » التي تحدث فيها بصراحة كبيرة عن نفسه وعن عصره . وقد خلد الرسام بينتورتشيو Pinturiccio (١٤٥٤ / ١٥١٣) الملقب بالصغير (لقصر قامته) كتاب التعليقات ، بما أستخرجه منه من صور ، صنع منها فريسكات مكتبة كاتدرائية سيينا . وقد زين بينتورتشيو بعد ذلك مسكن بورجيا في الڤاتيكان . وعمل في سقف مذبح السيستين . وكان معروفاً بأجادة توزيع الأشخاص ، وحسن أختيار الخلفيات . وقد أثر تأثيراً كبيراً في تلميذه رافاييل (الذي نتحدث عنه في الفصل التالي).

وقد خلف پيوس ، البابا پول الثاني (١٤٦٤ / ١٤٧١) الذي كره فلاسفة وفناني الرينسانس . وإن كان قد هوى جمع الأنتيكات والنقود الأثرية . وبنى قصر ماركو . وكوبري سانت بيتر . وجدير بالذكر أن الطباعة دخلت في عهد پول الثاني إلى روما . وأنه قد تألف فيها لأول مرة « نقابة سانت پول » التي جمعت فنانيها ، والتي أصبحت بعد ذلك أكاديمية فنون سانت پول الشهيرة بروما .

وقد أعقب پول ، البابا سيكتس الرابع (١٤٧١ / ١٤٨٤) الذي لقب بعاشق الأنسانيات . وقد وسع سيكتس مكتبة الڤاتيكان . وبنى كنيسة

الڤاتيكان . وعمل في بناء مذبح كنيسة السيستين . كذلك بنى سيكتس عدة قصور ومستشفيات ، من أهمها مستشفي سانت أسبيرتو . وشق عدداً من الطرق الهامة في روما . وأقام بعضاً من أهم وأكبر كباريها فوق التيبر . وقد خدم سيكتس المهندسين بوتيتشيلي وسينوريلي والرسامين بيروچينو Perugino (١٤٤٥ / ١٥٢٣) ومانتينا Mantegna (١٤٣١ / ١٥٠٦) . وقد تتلمذ الأول على ديلا فرانسيسكا وڤيروتشيو . ثم أصبح بيروچينو من أشهر رسامي أيطاليا . وقد تتلمذ عليه رافاييل . وأشتهر مانتينا بأعماله القوية والتي تنحو إلى الكلاسيكية .

وخلف سيكتس ، البابا ألكسندر السادس (١٤٩٢ / ١٥٠٣) الذي سنتحدث عنه مع رافاييل . وقد وسع ألكسندر مكتبة الڤاتيكان ، وأهتم بجامعة روما . وأعقبه البابا يوليوس الثاني (١٥٠٥ / ١٥١٣) . وكان أبن أخت سيكتس الرابع . وقد تابع أعمال خاله في بناء بازيلكا سانت بيتر وغيرها . وبدأ تأسيس متحف الڤاتيكان . وقد خدمه المهندسون ألبرتي وبرامنتي . والفنانون مايكل أنچيلو ورافاييل . وقد صمم له مايكل أنچيلو قبة سانت بيتر ، على طراز قبة كاتدرائية فلورانسا التي بناها برونيليتشي . « وكانت قبة سانت بيتر أكبر ، ولكن ليست أكثر جمالا من قبة فلورانسا ». كذلك عمل مايكل أنچيلو في بناء مقبرة يوليوس الثاني . وأما رافاييل ، فقد رسم له لوحة من أعظم اللوحات

الفنية في تاريخ الفن ، وهي لوحة « مدرسة أثينا » التي جمع فيها بين علماء الدين والوثنيين القدامى .

وكان يوليوس الثاني عنيداً وقاسياً . وقد أنتخب للبابوية وهو في الستين من عمره . وكان يكره الفرنسيين ، وكبار العائلات الأيطالية ، وحكام بيروچيا وبولونا على وجه الخصوص . وكان يخرج للحرب على رأس جيشه ، ممتطياً صهوة جواده ، كشاب في العشرين . فيخسر المعركة تلو المعركة ، ولا تزيده الهزائم إلا تصميماً على النصر . وهو الذي نظم المقاتلين السويسريين حرساً خاصاً له . وقد وصفنا بعض نواحي علاقاته المتوترة بمايكل أنچيلو .

وجدير بالذكر أن يوليوس الثاني قد طرد من روما الفنان سودوما Sodoma (١٤٧٧ / ١٥٤٩) بدعوى سوء أخلاقه . ولم يعد سودوما إلى روما حتى ولاية ليو العاشر .

وقد أعقب يوليوس الثاني ، البابا ليو العاشر (١٥١٣ / ١٥٢١) . وكان من عائلة المديتشي الشهيرة بفلورانسا . وقد تتلمذ على بوليتزيانو. وأنشغل ببناء الأبنية ، وشق الطرق في روما . ويلومه المؤرخون - مع خلفه كليمنت السابع (١٥٢٣ / ١٥٣٤) - على عدم تحركهما لمواجهة التحديات التي أخذت تواجه البابوية خلال تلك السنوات ، في أيطاليا والخارج . والتي أدت إلى نهب روما عام ١٥٢٧. ومواجهة التحدي البروتستنتي - والچيرمانى - في ألمانيا على يد مارتين لوثر (الذى نتحدث عنه فيما يلي) . ثم خروج الكنيسة الأنجليزية

عليهابعد ذلك على يد هنري الثامن * .

وقد تفجرت هذه التحديات مجتمعة في عهد البابا پول الثالث (١٥٣٤ / ١٥٥٠) الذي أعتبر آخر باباوات الرينسانس الأيطالي . والذي رسم له مايكل أنچيلو « العشاء الأخير » . وقد أدت آثار البذخ البابوي الذي وصفنا بعضه ، إلى تزايد ثقل الضرائب على الرومانيين ، وتزايد بيع صكوك الغفران ، والمناصب الكنسية ، للقادرين في أنحاء الدول المسيحية الغربية . في الوقت الذي تزايد فيه إهمال البناء والأصلاح ، والعناية الوافية بالفنون .

---

* أنظر كتابنا « هنري الثامن » في هذه السلسلة .

رافاييل : فنان الرينسانس

يقال أن رافاييل* قد جسد بأفكاره معنى الرينسانس . وأنه قد صور بسيرته تاريخ الرينسانس . فقد ولد رافاييل في أوربينو ، أبناً وحيداً ويتيماً . ودرس في بيروچيا ، ثم فلورانسا . وعمل في الأخيرة ، ثم في روما . وكان قد درس الرسم الكلاسيكي على يدي والده ، ثم على يدي ڤيتي وبيروچينو . ولكنه جاهد بعد ذلك للتخلص من تأثير الأخرين . مطوراً فنه الخاص ، والبالغ الذروة في أتقان الصنعة . والهادىء ، والمستبشر بالحياة . وقد رسم رافاييل بالزيت ، وعلى الفريسكات، وعلى الستائر ، إلى جانب النحت ، والهندسة . ونقب عن الآثار . عمل في كل هذا ، وهو بعد صغير السن . فأصبح صاحب مدرسة فنية متكاملة وناجحة في الرينسانس الأيطالي ، لها تلاميذ كثيرون . وأصدقاء من الفلاسفة والأدباء ، وهو بعد في شبابه . وإلى ذلك كله ، فقد نظم في

---

* أنظر كتابنا « رافاييل » في هذه السلسلة .

بدء حياته الأغنيات . وتقلد فيها أعلا المناصب . ثم توفي في سن صغيرة.

* * *

ولد رافاييل في أوربينو عام ١٤٨٣ . وكان والده رساماً شهيراً ، هو چيوفاني سانتي ديه بيترو ، الذي خدم في بلاط دوقية أوربينو . وكانت والدته هي ماچيا باتستا ديه نيكولا تشيارلا ، أبنة أحد التجار الأغنياء في الدوقية . وقد أفتقد رافاييل شقيقيه الوحيدين وهو صغير . ثم توفيت والدته وهو في الثامنة . وتزوج والده من سيدة أخرى قاسية ، تركت في ذهنه الصغير ذكريات سيئة . وعندما توفي والده بعد ذلك بثلاثة أعوام، أنتقلت رعاية الفنان الصغير إلى إليزابيتا جونزاجا ، زوجة الدوق جويدو بالدو ديه مونتيفيليترو (كما أشرنا) . فأصبحت الدوقة بمقام والدته، وأنشأته في قصرها نشأة الأمراء .

وقد عمل رافاييل فترة مع الرسام ڤيتي . ولكن بدلاً من أن يتأثر التلميذ بالأستاذ ، « تأثر الأستاذ بالتلميذ »، وأصبحا صديقان . ثم أنتقل رافاييل إلى أستديو بيروچينو . وقد رسمه رافاييل في صورة رائعة وباقية . ولكنه « لم يتعلم منه كثيراً ». ويضيف ڤازاري (الذي نقلنا عنه) إلى ذلك « إن رافاييل قد جاهد بقية حياته كي يتخلص من تأثير أستاذه بيروچينو عليه ». وأما الاستاذين الحقيقين لرافاييل ، فهما - كما يقول ڤازاري - مايكل أنچيلو وليوناردو داڤينشي.

ويلاحظ أن رافاييل قد ألتقى بمايكل أنچيلو في روما . وكان مايكل أنچيلو يكبره بثماني سنوات . وكان يعمل وقتها في سقف مذبح السيستين . وكان رافاييل يتلصص - كما قيل - على أعماله ، خلال تقدمه فيها . وقد أعجب بها ، وحاكاها من قبل أن يزاح الستار عنها . ويقال أنه قد تعلم منه وضوح البعد الثالث في صوره .

ولكن مايكل أنچيلو لم يحب رافاييل . وربما كانت غيرته من علاقة رافاييل بالبابا يوليوس الثاني ، ثم بالبابا ليو العاشر ، هي السبب في نفوره . فأن علاقات رافاييل بهما كانت ممتازة . بينما علاقة مايكل أنچيلو بيوليوس الثاني بالذات كانت سيئة جداً . ويقال أن مايكل أنچيلو قد صادف رافاييل يوماً على رأس موكب كبير من تلاميذه ، يتجاوز عددهم الثلاثين أو الأربعين ، في أحد ردهات القصر البابوي . فسأله : أين تذهب بهذا الحشد كاللوردات ؟. فأجابه رافاييل : وأين تذهب أنت وحدك كالجلاد ؟.

وقد ألتقى رافاييل بليوناردو في كل من فلورانسا وروما . وكان ليوناردو يكبره بتسعة وعشرين عاماً . وكانت العلاقة بينهما حسنة . وقد أخذ رافاييل عن ليوناردو الأساس البيولوچي للصورة . أي البدء في الصورة بالعظام ، ثم تغطية العظام باللحم والملابس . كذلك أخذ رافاييل عن ليوناردو في بعض صوره ، العناية الفائقة باليدين (كما في مونا ليزا ليوناردو) والتلوين الهرمي ، والعناية بالضوء .

وكان رافاييل قد عمل بين الأعوام ١٥٠٠ و ١٥٠٣ في كنيسة سانت أوجستينو بمدينة كاستيلو . ومن أهم صوره في هذه الفترة « الصعود » التي أنتقلت الآن إلى البرازيل . و « الصلب » التي أنتقلت إلى الناشينال جاليري بلندن . ثم ذهب رافاييل إلى ميلانو شهوراً . ومن أهم أعماله فيها « زواج العذراء » التي أستعار خلفيتها من أعمال براماتني. ثم عاد رافاييل إلى بيروچيا . وأنتقل منها في ١٥٠٨ إلى روما ، ثم إلى فلورانسا . ومن أهم صوره في الأولى « العزل » التي نقل فيها وضع مايكل أنچيلو للمسيح في تمثاله الشهير « بييتا ». وأما في فلورانسا ، فقد رسم رافاييل أحدى صوره الكثيرة للمادونا . وقد أنتقلت صورة مادونا فلورانسا لرافاييل الآن إلى متحف واشنجطن .

وأستقر رافاييل منذ عام ١٥٠٩ في روما . وكانت علاقته قوية بالفنان برامنتي . ويقال أنه قد تعلم منه الهندسة . ثم قدمه برامنتي إلى البابا يوليوس الثاني . وأوهمه أنه أحد أقاربه . وقد أعجب يوليوس الثاني بحديث وأخلاق رافاييل ، قبل أن يرى أعماله . فعينه سكرتيراً له . ثم كلفه بتزيين حجراته الخاصة « ستانزا ديلا سيناتورا » ، وكان بها مكتبة البابا الخاصة . ومن غرائب الصدف أن رافاييل قد شغل في هذا العمل ، مكانة أستاذه بيروچينو . بل أنه قد أزال ، بأمر يوليوس الثاني ، رسوم بيروچينو ، وبعد ذلك رسوم سينوريللي وديلا فرانسيسكا ، من حجرات الڤاتيكان ، وأخذ يغطي مواضعها برسومه

الجديدة . ومن أهمها صورته الرائعة «مدرسة أثينا ». وقد حاول فيها أن يصور الفلاسفة الذين تحوي القاعة كتبهم . ثم ضم إليهم بعد ذلك غيرهم، ممن أعتبرهم لايقلون عنهم مكانة .

وقد أستمر رافاييل يتمتع بثقة يوليوس الثاني طول حياة الأخير ، ثم من بعده بثقة البابا ليو العاشر . وقد رسم رافاييل لليو العاشر صوراً كثيرة للمادونا ، من أشهرها « مادونا السيستين » عام ١٥١٦ . ويقال أنه عندما صنع رافاييل للبابا ليو العاشر فريسكات كنيسة سانت ماريا ديلا بيس ، ثار خلاف بينهما على أجر رافاييل عن « سيبيل » . فأتفق الأثنان على تحكيم مايكل أنچيلو . وقد حكم مايكل أنچيلو بأن يدفع البابا لرافاييل ضعف الأجر الذي سبق أن أتفقا عليه .

وقد أصيب رافاييل في روما بالملاريا . وأطلق بعد إصابته بها لحيته. وعين منذ عام ١٥١٥ أميناً للحفائر الرومانية . وعاد منذ عام ١٥١٦ للعمل في حجرات الڤاتيكان . وقد رسم في هذا العام صورته الشهيرة « بالدازار كاستليوني » للفيلسوف والدبلوماسي الأوربيني الذي أشرنا اليه . وقد لقبت هذه الصورة أحياناً بأسم « أكثر صور الرينسانس تعبيراً عن الرينسانس » . ورسم رافاييل بعدها لدوق فيرارا « أنتصار باخوس » . ثم « معركة أوستيا ». وفي عام ١٥١٨ ، رسم رافاييل صورة لورانزو المديتشي . وعينه البابا ليو العاشر مديراً لأشغال مدينة روما .

وقد ذكرنا أن رافاييل كان يسير دائماً في حشد كبير من أصدقائه وتلاميذه ، يمرق بهم بين حجرات الفاتيكان ، ويدخل بهم على البابا . ومن بينهم ڤيتي وبينتوريتشيو وورومانو وبيني وديل فاجا. وأيضاً كاراڤاجيو Caravaggio (١٥٧٣ / ١٦١٠) . وقد كلف في أواخر حياته بأعمال تفوق طاقته ، كان يكلف بأكثرها تلاميذه .

يقول ڤازاري :

« ولما كان رافاييل قد عمل في البلاط سنوات كثيرة ، وقدم للبابا ليو العاشر خدمات لاحصر لها ، فقد ظن أن البابا ، جزاء خدماته ، ولخصاله الحميدة ، سيقدم له قبعة حمراء ». أي سيجعله كاردينالاً . ولكن هذا القول مشكوك فيه .

وكان رافاييل يعرف حبيبة له هي فورنا رينا . رآها - كما يذكر ڤازاري - تستحم في مياه نهر التيبر :

« وحيث أنه كان دائم الرغبة في كل شيء جميل . وقد وجد فورنا رينا أجمل من كل شيء آخر عرفه ، فأنه سرعان ما وقع في غرامها ، وركز محاولاته عليها ، بحيث لم يقر له قرار حتى أمتلكها ».

وكان رافاييل قد تزوج أبنة أخت أحد الكرادلة ، بعد أن أغراه رجل الدين بدوطة كبيرة دفعها له . مع أنه كان يجاهر بأنه لا يريد الزواج «خوف أن يلهيه الزواج عن فنه »، أو عن فورنا رينا . فلما تزوج ماريا بيبينا ، عام ١٥١٩ ، لم تمكث معه عروسه سوى شهوراً قليلة . ثم

ماتت. ولم يكن عمرها قد تجاوز ثمانية عشرة عاماً . ثم توفي رافاييل بعدها بشهور ، أي في ١٥٢٠ ، ولم يكن عمره قد تجاوز ٣٧ عاماً.

وقد شيعت جنازته بأحتفال « يليق بأحد أمراء الكنيسة ». وحضرها كل أهالي روما . ومن بينهم فورنا رينا ، التي حزنت عليه حزناً بالغاً وصادقاً . وكان رافاييل « قد ترك لها بعض ثروته ، كي تعيش من بعده حياة هانئة ». ولكنها آثرت أن تترهب .

وقد دفن جثمان رافاييل في بانتيون روما .

الرينسانس في البندقية

كانت البندقية حتى القرن الخامس « قرية من الصيادين ». ولكنها أخذت تنمو منذ هذا الوقت « في حضن » الدولة البيزنطية : تحتمي بها، وتتاجر معها ، وتتعلم منها . ثم أخذت، شيئاً فشيئاً ، تنافسها وتستنزفها . ولا تتورع عن نهبها وسرقتها . ففي خلال الحروب الصليبية، تعهدت البندقية بأن تنقل بسفنها إحدى الحملات الصليبية إلى فلسطين . ولكنها نقلت الحملة إلى القسطنطينية . ونهبت مع أفرادها عاصمة الدولة البيزنطية . ونقلت منها في هذه المناسبة أربعة أفراس برونزية ضخمة ، لاتزال تزين واجهة كاتدرائية سان مارك بالبندقية .

وجدير بالذكر أن بحارة البندقية كانوا قد سرقوا عام ٨٢٨ من الأسكندرية بمصر ، جثمان القديس السكندري سان مارك . وتقول الأسطورة أن العواصف قد أعمت مطارديهم ، فلم يستطيعوا أسترداده منهم . وأنهم قد أنتهوا به إلى المكان الذي أختاره بنفسه ، فأقاموا فيه

كاتدرائية مدينة البندقية .

وعندما سقطت القسطنطينية في أيدي الأتراك عام ١٤٥٣ ، ورثت البندقية عنها مكانتها الكبرى . وتحولت بسفنها القوية إلى « أمبراطورية محمولة فوق مياه البحر الأبيض المتوسط ». ولما سقطت جنوا في أيدي ميلانو ، أصبحت البندقية هي القوة البحرية الكبرى في هذا البحر .

وكانت الترسانة البحرية على مدخل لاجون البندقية تعمل ليل نهار . وعمالها الذين كان عددهم يتجاوز الألفين ، يقومون ببناء مائة سفينة كبرى في وقت واحد . وفي كل يوم ، ينزلون إلى مياه البحر سفينة جديدة من هذه السفن .

وكانت السفن تُبنى متماثلة في البندقية ، بحيث يسهل أصلاحها بقطع غيار واحدة ، ويمكن نقل بحارتها من سفينة منها إلى الأخرى . ولم تكن هذه السفن مملوكة للتجار ، وإنما للمدينة . وكانت مدينة البندقية تمنع عمال سفنها من مبارحة المدينة إلا بإذن خاص ، خوفاً من أن ينقلوا أسرارها وأسرار صناعة سفنها إلى أعدائها .

فإذا دخلت سفينة أجنبية لاجون البندقية ، لم يسمح لها بالخروج حتى تفرغ ثلثي حمولتها بالميناء . وكان يحرس اللاجون سفن حراسة قوية ، يؤازرها جنود مسلحون ، وجميعهم في يقظة وأستعداد .

وكانت تلك السفن تنقل من البندقية العبيد والحرير والزجاج والذهب. وتجلب إليها التوابل . وبالأضافة الى هذا ، كانت سفن البندقية تعمل

في نقل البضائع الدولية من مكان إلى آخر . وتنقل الحجاج المسيحيين إلى أيطاليا وفلسطين . ولهذا أصبح للبندقية ممثلون تجاريون ، وقناصل، وجراسيس ، في أهم موانئ البحر الأبيض المتوسط . وكان فيها جاليات كبرى من اليهود والأرمن والأتراك والألمان . وكان أفراد هذه الجاليات يعملون جميعاً بالتجارة ، ولكن لايسمح لهم بحقوق المواطن . وكانوا يتركزون حول الريالتو . وكان شعارهم المنقوش فوق واجهة كنيسة الريالتو : ليكن شعارنا العدل . ووزننا دقيق . وكلمتنا ثابتة .

وكان يحكم البندقية حاكم مستبد هو الدوتشي . وإلى جواره «مجلس العشرة ». وكان أعضاء المجلس ينتخبون من بين أعضاء مجلس أكبر ، هو السينات . ويساعد الدوتشي وزراء . ويعتمد الحكم على جهاز للمخابرات . يسانده أرشيف ضخم ،هو أكبر ما عرفه العالم القديم . و « نظام فم الأسد المفتوح » الذي أتخذته البندقية شعاراً لها . حيث يستطيع أي مواطن في المدينة، أن يضع خلال فتحات فم تمثال الأسد ، التي تؤدي إلى صناديق مقفلة ، كل ما يجب أن ينقله للمجلس من أخبار ومعلومات ، من دون أن يضطر إلى الكشف عن شخصيته .

وبناء على هذه الأخبار والمعلومات ، التي تتوارد لمجلس البندقية من داخل المدينة ، ومن جواسيسها في الخارج ، كان المجلس يجتمع في سرعة وسرية . ويصدر أحكامه النهائية . وينفذها على الفور . فاذا أدان المجلس شخصاً ، فله أن يسجنه ، أو ينفيه ، أو يقتله . بالعصا ، أو

بالغرق في اللاجون ، أو بالتعليق من القدمين أمام قصر الدوتشي ، أو بدفن رأسه ونصفه الأعلى قرب الميدان العام ، وترك رجليه معلقتين في الهواء .

ولم يكن المجلس يعترف بأية سلطات للكنيسة أو الفاتيكان . ويرفض تعيين رجال الدين الغرباء عن المدينة في مناصبها . بل ويحمي بعض مناهضي روما، كما فعل مع المؤرخ المناهض للكاثوليكية ساربي .

ولم يكن الدوتشي يستطيع أن يرفض قبول منصبه ، أو أن يستقبل منه . ولم يكن يسمح له بالسفر إلى خارج المدينة . أو أن يتزوج بأجنبية. أو أن يقلد أحد أفراد أسرته منصباً رسمياً . أو أن يتزعم حزباً . أو أن يعين مستشاريه ووزرائه .

* * *

وقد بدأت إرهاصات الرينسانس الأيطالي - كما رأينا - في فلورانسا ، ثم بعض المدن والدويلات والدوقيات الشمالية . وكان هدف تلك الحركة هو إحياء الآداب والفلسفات والفنون القديمة . وقد بلغ هذا الإحياء أوجه منذ البداية في فلورانسا . ولكن حركة الرينسانس لم تمتد ، كما كان ينتظر إلى ميلانو . لثبات قواعد الأقطاع ، ولأشتغال المدينة بالحروب . وعلى العكس أزدهرت هذه الحركة في روما ، بعد عودة البابوية إليها من منفاها في أفينيون . ثم لم يبق إلى جانب روما ، لوراثة الأرث الفلورانسي الثمين ، غير البندقية . وقد دخلت حركة

الرينسانس البندقية متأخرة عن بقية المدن والدويلات والدوقيات الأيطالية . ولكنها بقيت فيها فترة أطول .

وكان طراز العمارة غوطياً في البندقية . وقد تأثرت الفنون فيها بالمؤثرات البيزنطية القديمة ، في تصوير الأيقونات وتوزيع الألوان . ولكن المؤثرات التوسكانية أخذت تغزو منذ القرن الخامس عشر فنون البندقية . فأتخذت مدرسة البندقية من جسم الأنسان موضوعها الأساسي . وأعتبرت هذا الجسم رمزاً للبراءة . وصورت جمال المرأة كمنبع دائم لأستطلاع الذهن والروح الأنسانيين . وأصبحت الصور حسية ، وزاهية الالوان . وأنتقلت المواضيع من تصوير الأمراء والتجار ، إلى تصوير الأفراد العاديين . ثم أمتدت إلى تصوير الأساطير الميثولوجية ، وتخليد الأمجاد السياسية والعسكرية ، والمناسبات الدينية .

وقد جاء الرينسانس إلى البندقية مع بداية حكم الدوتشي فوسكاري Foscari عام ١٤٢٣ . وأستمر فيها قوياً طوال مدة حكمه . ولم يتوقف حتى عندما تحولت التجارة العالمية عن البندقية ، إلى طريق رأس الرجاء الصالح .

وكان فوسكاري أحد أبناء عائلة متواضعة بالمدينة . وقد أنتخب رغم معارضة أبناء العائلات الكبيرة فيها ، وخصوصاً عائلة لوريدان . ولهذا أستمرت الأحتفالات والمواكب التي قامت لأنتخابه عاماً كاملاً في ميدان سان مارك ، الذي تحتل الكاتدرائية مكان الصدارة فيه ، وإلى جانبها

قصر الدوتشي . وفتحت قاعة المجلس الكبير للشعب ، تعبيراً عن أنتقال السلطة من العائلات الكبيرة إلى الشعب .

وقد جعل فوسكاري من الأحتفالات والمهرجانات - بعد ذلك - لهواً وفلسفة وتجارة . وأراد أن يحجب بها خلافاته الداخلية وحروبه الخارجية. وقصرها على شهر مايو من كل عام . وأدخل الأقنعة والصخب والألوان إليها . وجعلها تمتد من ميدان سان مارك إلى أنحاء المدينة ومياهها .

وكانت الأحتفالات تبدأ بـ « زواج الدوتشي من البحر الأدرياتيكي». ويحضرها مئات الألوف من أهالي وزوار المدينة، وعلى رأسهم في كل عام أحد كبار الزوار . وقد حضر أحتفالات عام ١٤٢٨ أمير البرتغال . وحضر أحتفالات عام ١٤٣٨ الأمبراطور البيزنطي . وأحتفالات عام ١٤٥٢ أمبراطور المانيا والنمسا . وهكذا .

وقد تحالف فوسكاري عام ١٤٢٥ مع فلورانسا ضد ميلانو . وأستأجر الكوندوتييري كارامانولا لمحاربة الأخيرة . وجهز له أكبر جيش في تاريخ أيطاليا العصور الوسطى . وقدم له أموالاً لا حصر لها . ووعده بأن يجعله دوقاً على ميلانو . ولكن كارامانولا أخذ يماطله . حتى يئس منه فوسكاري عام ١٤٣٢ ، فدعاه لمقابلته ، وقتله .

وقد أستطاعت جيوش فوسكاري بعد ذلك أن تهزم بادوا وچنوا . وأن تتسلط على لومبارديا . وأن تمد حدود البندقية شمالاً وغرباً . فأستولت على بريسيا وبرجامو وراڤينا وڤيرونا وڤيشينزا وتريفيزو وفيرارا .

وأنتهي هذا المد البندقي المكلف ، إلى تحالفها مع الدويلات الأربع الكبرى : فلورانسا وميلانو وروما ونابولي . ولكنه صرف أهتمام البندقية عن الشرق ، أي عن الدولة البيزنطية وشرقى البحر الأبيض المتوسط . وأنتهي بخسارة البندقية لأسواقها التقليدية . ثم سقوط سالونيكا في يد الأتراك عام ١٤٣٠ . وأضطرت البندقية بعد ذلك ، إلى أن تدفع للأتراك إتاوة سنوية مقدارها ١٠٠٠٠ ديكات كي تواصل تجارتها في منطقة البحر الأيبجي .

وفي ١٤٤٥ ، أستطاعت عائلة لوريدان أن تنتقم من فوسكاري في شخص أبنه ، چاكوبو Jacobo . فأتهمته بحصوله على هدايا من دوق ميلانو . وأجتمع مجلس العشرة ، وقرر نفي چاكوبو إلى اليونان . ولما عاد من منفاه بعد ذلك بعامين ، أتهم مرة أخرى بالتآمر على الحكم . ونفاه مجلس العشرة عام ١٤٥٠ إلى جزيرة كريت . فتوفي فيها چاكوبو، وأعفي والده فوسكاري عن الحكم .

* * *

وكانت ثروات البندقية قد أخذت تتضخم منذ عام ١٤٥٠ . وأخذ أهلوها يتمعون أنفسهم بما في أيديهم من أموال . فظهرت القصور في داخلها ، والڤيلات في خارجها . وأمتدت قرى وحدائق الفينتو حتى ما لا نهاية . وأمتازت هذه البنايات بكثرة زخارفها . وقد أقام المهندسان أندريا بالاديو Palladio (١٥٠٨ / ١٥٨٠) وچاكوبو سانسوڤينو

Sansovino (١٤٨٦ / ١٥٧٠) عشرات من تلك القصور والڤيلات .
وكان بالاديو قد نشأ في عائلة فقيرة ، وتعلم النحت في بادوا وڤيشنزا .
وتتلمذ في الهندسة على تريسينو . وقد بنى مسرح البندقية . وكان يرى أن واجهة كل ڤيلا يجب أن تطل على مجرى ماء . وأما سانسوڤينو، فقد بنى مكتبة البندقية .

وكانت البندقية قد أصبحت مركزاً هاماً لتجارة الكتب . وقد قام فيها حوالي ٢٠٠ مطبعة جديدة . وعمل بها عالم الأغريقيات ألدوس مانوليوس Manulius (١٤١٥ / ١٥١٥) . وأنتقل إليها من مانتوا الموسيقي كلوديو مونتيڤردي Monteverdi (١٥٦٧ / ١٦٤٣) الذي أعتبر من بين مؤسسي الأوبرا الحديثة . وقد أفتتحت فيها في بداية القرن السابع عشر أول دار أوبرا في العالم .

وخدم الرسامان باولو أوتشيلو Uccello (١٣٩٧ / ١٤٧٥)، وأنتونيو ڤيڤاريني Vivarini (١٤١٥ / ١٤٧٦) الدوتشي فوسكاري .
وقد تتلمذ الأول على جيبرتي (السابق الأشارة إليه) . وقام بعمل موزيكات كثيرة في سان مارك . وكانت له أهواء عجيبة . إذ كثيراً ما كان يختفي داخل منزله أياماً ، يرفض خلالها الخروج لعمله .

وقد عمل في البندقية أيضاً الشقيقان چيوفانو بيليني Giovano Bellini (١٤٢٩ / ١٥١٦) وچنتيل بيليني Gentile (١٤٢٩ / ١٥٠٧) . وقد عمر الأول حتى بلغ ٨٦ عاماً ، أتم فيها مئات الصور

واللوحات الدينية والميثولوجية . وقد أشتهر بصورة للعذراء . وأما چنتيل ، فقد سافر للقسطنطينية ورسم السلطان محمد الثاني . وعاد من هناك بقلادة من الذهب ووسام رفيع . ثم أنعم عليه الأمبراطور فريدريك بلقب كونت .

وقد أجاد چيوفانى بيليني توزيع المساحات والألوان في صوره الطبيعية . وتتلمذ عليه كارباتشيو Carpaccio (١٤٥٥ / ١٥٢٥) وچورچيون Giorgione (١٤٧٨ / ١٥١٠) وتيتيان Titian (١٤٩٠ / ١٥٧٦) . وقد أعتبر چيورچيون « الأب الحقيقى لمدرسة البندقية». لحساسيته وشاعريته وأمتيازه في تصوير الطبيعة . ولكنه أتجه ، مع تيتيان ، الذي تأثر به بشدة ، لتصوير الطبيعة والنساء العاريات . والأهتمام بالالوان . وأعتبر هذا الأتجاه دليل الديمقراطية والمساواة في الفن البندقي . وكان مايكل أنچيلو قد ذكر ، أنه لو رسم چيورچيون «مثلما يلون ، لما تطاول عليه أحد ». وقد قضى تيتيان عدة سنوات في روما ، رسم خلالها البابا ألكسندر السادس . وأنعم عليه الأمبراطور شارل في ١٥٣٣ بلقب كونت .

وقد نافس تيتيان ، في طول العمر وكثرة الأنتاج ، چيوفانى بيليني. فقد ظل تيتيان يرسم حتى بلغ التسعين من عمره . وكان يتقاضى ٥٠٠ كراون عن كل لوحة يرسمها . ونافسهما أيضاً في كثرة الأنتاج تينتورتو Tintoretto (١٥١٨ / ١٥٩٤) الذي أشتهر بلوحته لجثمان سان مارك.

كذلك حافظ فيرونيز Veronese (١٥٢٨ / ١٥٨٨) وباسانو Bassano (١٥١٦ / ١٥٩٢) على أصول المدرسة البندقية في التناسق والألوان . وبرع الأول في تصوير الأساطير ، ورسم صور اللهو والموسيقى.

تواريخ فى تطور الرينسانس الأيطالي

١٣٢١	وفاة دانتي .
١٣٧٤	وفاة بترارخ ، مؤسس الرينسانس وأول الأنسانيين .
١٣٧٥	وفاة بوكاشيو .
١٤٠٢	وفاة جيان جاليزو ڤيسكونتي .
١٤٤٦	وفاة المهندس والنحات برونيليتشي .
١٤٥٠	بداية أنتشار الطباعة في ايطاليا .
١٤٥٣	سقوط القسطنطينية في أيدي الاتراك .
١٤٦٤	وفاة كوزيمو مديتشي .
١٤٦٦	وفاة النحات دوناتيلو .
١٤٧٢	وفاة الفيلسوف والمهندس ألبرتي .
١٤٩٢	وفاة لورانزو العظيم .
١٤٩٤	وفاة بيكود يلا ميرانديلا .
١٤٩٨	قتل ساڤونارولا .

١٤٩٩	هروب لودفيكو سفورزا (المور) من ميلانو .
١٥٠٧	وفاة سيزار بورچيا .
١٥١٣	وفاة البابا يوليوس الثاني .
١٥١٩	وفاة ليوناردو دافنشي .
١٥٢٠	وفاة رافاييل .
١٥٢١	وفاة البابا ليو العاشر .
١٥٢٧	وفاة الفيلسوف والمؤرخ ماكيافيلي .
١٥٦٤	وفاة مايكل أنچيلو .

أنتقال الرينسانس إلى فرنسا

أخذت رياح الرينسانس الأيطالي تهب على أنحاء غربي أوربا منذ نهاية القرن الخامس عشر . فأنتقلت أساليب الدبلوماسية الأيطالية بين المدن والدويلات والدوقيات إلى بلاطات دول أوربا . وذاعت شهرة الجامعات الأيطالية في أنحائها ، خصوصاً جامعة بادوا في القانون . وتتلمذ في هذه الجامعة بالذات أثنان من ملوك أوربا التالين ، وهما ملكا السويد وبولندا . كذلك تتلمذ فيها العالم الفلكي الأيطالي جاليليو. وعرفت كتب الفنانين الأيطاليين ورسومهم طريقها إلى مسارح الفن في أوربا .

وكانت حركة الرينسانس قد كلفت الأيطاليين غالياً . وقد صاحبها فساد وتبذير من كثير من باباوات روما . حتى ضج الأيطاليون والأوربيون على السواء من الضرائب العالية التي فرضها الڤاتيكان عليهم . وأخذ بعض الباباوات « يبيعون القبعات الحمراء » أي مناصب الكرادلة ، في أنحاء أوربا ، لمن يدفع أعلا الأسعار . فإذا أشترى

المنصب فرد من الأفراد ، أعاد جمع ما أنفقه في شرائه ، وأكثر ، من بيع المناصب الأصغر في مقاطعته . ومع ذلك ، قيل أن البابا پول الثاني كان يتعمد ترك المناصب الدينية شاغرة كي يحصل هو على إيراداتها .

كذلك بدأ بعض الباباوات ، حين أعوزتهم الأموال لأكمال سانت بيتر في روما ، في بيع صكوك الغفران ، خصوصاً في ألمانيا ، حيث عرفت فيها بأسم Tetzel . وقد تبعهم في ذلك الكرادلة والأساقفة ، من أمثال أسقف ماينز . فأن هذا الأسقف كان قد أقترض أموالاً كثيرة من بنك فوجير الألماني لشراء قبعته الحمراء . فلما حصل عليها ، عاجله البنك بطلب رد كامل ما أقرضه له من أموال . فلما أعيت الحيل الأسقف الجديد ، قام بحملة كبرى لبيع الصكوك في منطقته . وأخذ يشيع أن تلك الصكوك « ستغفر كل خطيئة». مع أن الحقيقة أن الڤاتيكان كان يقصد بها « أن تكفر أرضياً عن الجرم » وليس عن الخطيئة . حتى شاع في ألمانيا في ذلك الوقت القول : أذا رنت النقود في الصندوق ، رفعت العذابات عن الأرواح .

وقد سبق الحديث عن غزوات الأمبراطور شارل في عام ١٤٩٥ لنابولي. ثم حملات ملوك فرنسا ، شارل الثامن ولويس الثاني عشر وفرانسيس الأول ، على شمالي أيطاليا . وقد أستمرت هذه الحروب ، بما صاحبها من تدمير وخراب ، طوال الثلاثين عاماً التالية . وأنتهت في ١٥٢٧ بغزو ٣٠٠٠٠ ألماني ، معظمهم من اللوثريون لروما ، وذبحهم

لأهاليها ، وتدنيسهم لمعابدها ، وتدميرهم لنفائسها .

وفي الوقت الذي أدى فيه التبذير المالي والمغامرات العسكرية إلى تدمير أيطاليا ، كانت التجارة الدولية قد أخذت تتحول - بفعل الكشوف الجغرافية - عن المدن الأيطالية إلى مدن أخرى في أسبانيا وهولندا بالذات . فتعاظمت أهمية بوردو ونانت ولندن وأنتويرب وهامبورج. وأزدادت بالتالي قوى دول أوربا الشمالية والغربية ، حتى أصبحت قواعد أقتصادية وسياسية كبرى في أوربا والعالم . ومست الحاجة فيها إلى الحكومات الجديدة ، والأساليب العلمية ، والرجال الأقوياء .

وكانت أسبانيا والبرتغال من أوائل دول غربي أوربا التي أحست بالعالم الجديد من حولها . ثم أنتقلت هذه المعرفة إلى الهولنديين والأنجليز والفرنسيين . فبدأوا يتعلقون بالكلاسيكيات القديمة . ويدرسون الأغريقية واللاتينية . ويقرأون بترارخ وڤالا وكاستليوني وغيرهم ، ممن تحدثنا عنهم . بل ويلبسون الملابس الأيطالية الضيقة التي عرفها الأيطاليون زمن الرينسانس . ويتذوقون عمارتهم وتماثيلهم ورسومهم .

* * *

وقد أدى قرب فرنسا من أيطاليا ، إلى سرعة أنتقال الرينسانس إليها . وتزايدت الحركة بينهما في أعقاب الغزوات الفرنسية التي أشرنا إليها . وكان الملك فرانسيس الأول (الملقب أحياناً بذي الأنف الكبير)

من أوائل من أعجبوا بالرينسانس الأيطالي ، ودرسوه ، وأمتلأت قلوبهم بحب أيطاليا والحياة الجديدة فيها . وهذا رغم هزيمته المريرة في باڤيا على يدي الأمبراطور الأسباني شارل . وقد أراد الملك فرانسيس أن ينقل إلى بلاطه الفنون العصرية التي خبرها في البلاطات الأيطالية . فأستقدم معه من أيطاليا أثنين من أعظم فنانيها . الأول هو ليوناردو داڤنشي ، الذي خصص له منزلاً جميلاً في أمبواز إلى جوار أستراحته في بلواه . وعندما أهداه ليوناردو صورته الخالدة «الموناليزا» أعطاه الملك فرانسيس ٤٠٠٠ كروان أخرى ثمناً لها . والثاني هو بينفونوتو تشيليني Cellini (١٥٠٠ / ١٥٧١) الذي أكتشف الملك فرانسيس سريعاً حرصه وحبه للمال ، فوعده بأن يسكنه «قصراً من أختياره» وبأن «يملأ فمه بالذهب».

وقد ظهرت في فرنسا ، عند عودة فرانسيس من أيطاليا أستراحات الصيد الباذخة ، التي جمعت بين حصون القرون الوسطى الفرنسية ، وعمارات الرينسانس الأيطالية الحديثة . وكان من أوائل القصور التي بنيت في فرنسا ، وتأثرت بعمارة برونيليتشي وبالاديو ، قصر أزاي ليريدو . ثم بنى الملك فرانسيس قصره في شامبور . وقد أستقدم لبنائه مهندساً أيطالياً ، وضع تحت أمرته ١٨٠٠ عامل فرنسي طوال ١٢ سنة .

وجدير بالذكر أن الملك فرانسيس كان قد زوج أبنه هنري (الملك هنري الثاني بعد ذلك) من آخر سلالة المديتشي : كاترين ، التي أصبحت بعد

ذلك أماً لثلاثة من ملوك فرنسا ، هم على التوالي فرانسيس الثاني وشارل التاسع وهنري الثالث . وقد قيل أن كاترين قد أدخلت إلى فرنسا أشياء عديدة ، من بينها أطعمة أيطالية كثيرة .

وقد ساعد الملك فرانسيس على صبغ فرنسا بألوان الرينسانس الأيطالي ، شقيقته مرجريت ديه ناڤار Margarite de Navarre (١٤٩٢ / ١٥٤٩) الملقبة أحياناً بلؤلؤة اللآلئ . وكانت مرجريت قد تزوجت ملك ناڤار ، ألبرت . وأحالت بلاطه إلى مأوى للأنسانيين ودعاة الرينسانس . وكانت تساعدهم في عملهم وتحميهم من خصومهم . خصوصاً من طغيان اللاهوتين والمتزمتين في السوربون . وقد تأثرت بالأفلاطونية . وأصبحت شاعرة وأديبة مرموقة . وكانت تراسل إيرازموس (الذي سنشير إليه) . وتقول: « إن الأنسان لايستطيع أن يعبد الرب عبادة كاملة ، حتي يحب مخلوقاته حباً كاملاً ».

وقد أتهمت مرجريت ديه ناڤار بالغموض ، وأحياناً بالتصوف . ووصمها السوربون بالكفر . وقال عنها كالڤين (الذي سنشير إليه أيضاً) أنها بعيدة عن الروحية . وأنها شديدة الأهتمام بالمسائل الدنيوية .

وأشتهرت مرجريت ديه ناڤار بترانيمها وأشعارها الروحية «التي عبرت فيها عن أفراحها وأحزانها ». ولها أقاصيص ، حاكت فيها أقاصيص بوكاشيو « ديكاميرون». وأسمتها « هبتا ميرون Heptameron ». وقد أعتبر البعض هذه الأقاصيص أرلى الأقاصيص

الفرنسية الحديثة .

وكان كلمنت مارو Marot (١٤٩٦ / ١٥٤٤) من أوائل من حاكوا الأشعار الأيطالية القديمة ، وأدخلوا السوناتا الأيطالية إلى الشعر الفرنسي . وقد أتهم مارو بمناهضة الكاثوليكية . وسجن في فرنسا . ثم نفي إلى ناڤار . وقد عاش بعد ذلك في چنيف .

وقد أستخدم الملك فرانسيس ، چيوم بوديه Budé (١٤٦٨ / ١٥٤٠) سكرتيراً له وأمينا لمكتبته . وكان چيوم صديقاً لإيرازموس وتوماس مور وفرانسوا رابليه (الذين سنتحدث عنهم). وقد ترجم إلى اللاتينية أعمالاً يونانية كثيرة ، وزودها بشروحه .

ويعزى إلى بوديه أقامة الكوليج ديه فرانس College de France في ١٥٣٠ . وقد أصبح الكوليج معهداً « علمانياً » لا يد لرجال الدين المسيطرين على السوربون فيه . وقد جمع الكوليج شمل الأنسانيين ، ومن بعدهم الأيفنچيليين . ودرست فيه لأول مرة اللغتان اليونانية والعبرية ، إلى جانب اللغة اللاتينية . وكان يسمح بالألتحاق فيه لعامة الفرنسيين . وقد أهتم بتربية النشء . وراعى حرية العقيدة . وشمول المعرفة . وأعتمد على المناقشة في بحث الآراء .

وقد أوجد الأهتمام بالكلاسيكيات القديمة في فرنسا ، نهضة أدبية وأحساس أنساني ونقدي جديد . وظهر خلال تلك الفترة ، التي لقبت بفترة الأنبهار ، فرانسوا رابليه Rabelais (١٤٩٤ / ١٥٥٣) . وقد بدأ

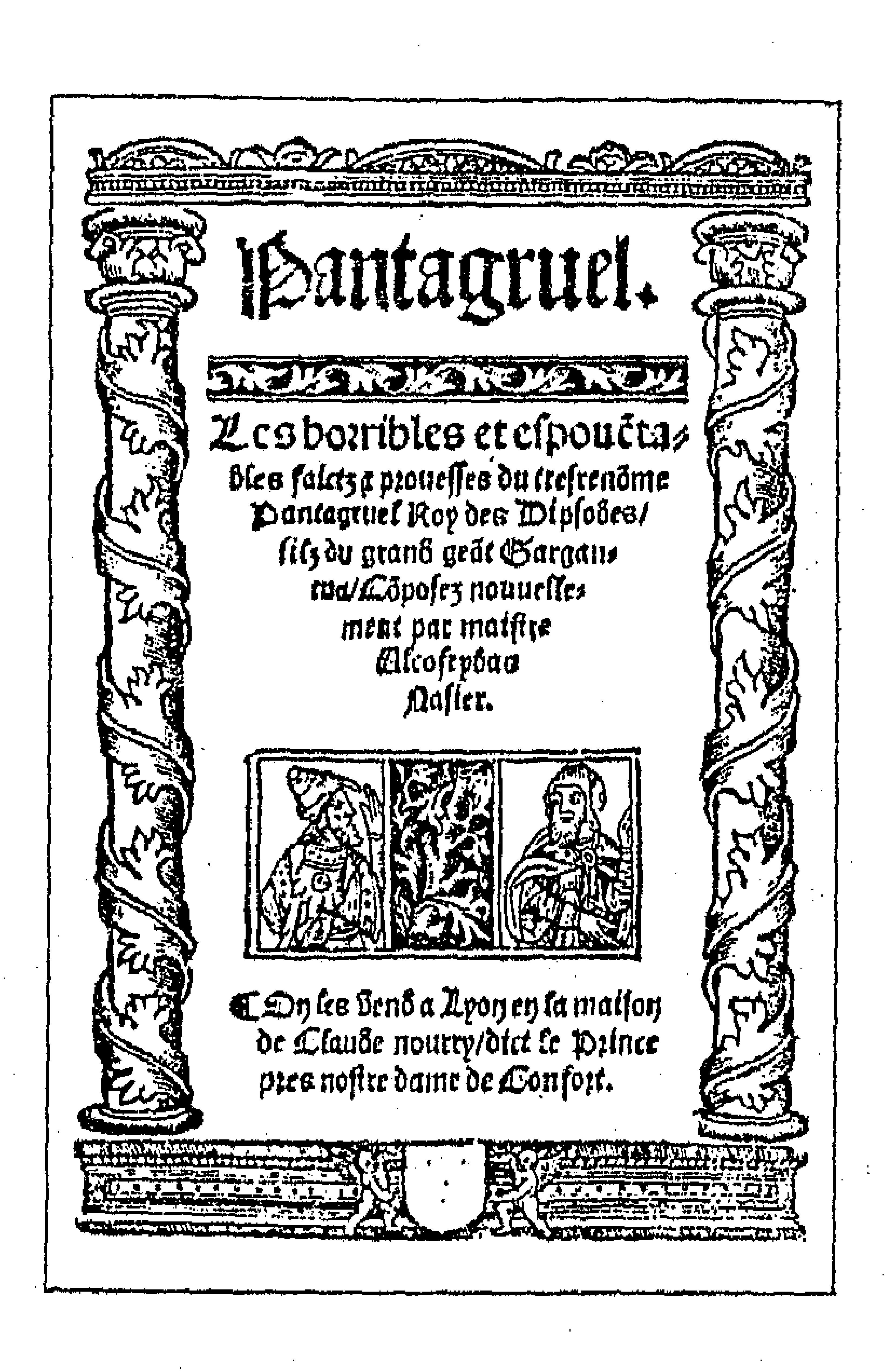
رابليه حياته بالأنضمام إلى الرهبان الفرنسيسكان . ثم البندكتيين . ثم ثار - كما قال - على « الجهل والفساد ». وأنخرط طالباً في جامعتي مونبلييه وليون ، فدرس فيهما الطب . ثم شغف بالأدب . وأحترف الأنسانية . ورافق أسقف باريس مرتين إلى روما ، درس خلالهما علوم الآثار والنباتات والطب .

وقد تقلد رابليه عدة مناصب دينية . وأصدر عدداً من الأعمال العلمية والأدبية . من أهمها ملحمته جارجانتوا وبانتا جروي Gargantua et Pantagruel التي تتناول أساطير عملاقين « متعطشين لكل شيء في الحياة ». ويتبعان نصيحة رابليه : أترك العنان لنفسك ، وأسعى وراء الحقيقة . ولا تترك شيئاً من دون أن تحاول أن تهتك سره .

وقد ضمن رابليه ملحمته أخباراً كثيرة من التراث الشعبي الفرنسي ، وحقائق التاريخ الفرنسي ، وأخبار الفلاسفة وعظماء القانون والطب . وأستعان في رواياته بغرابة السرد وفكاهته . وأنتهي بمحاولة ديزانتومور بناء يوتوبيا جديدة هي « تيليما Thélèma» أقتبس أسمها من الأغريقية ، بمعنى الحياة الحرة . وجعل أبوابها مفتوحة . ونظمها أختيارية وقوانينها مقبولة . ثم ساح مع بانيرج في أنحاء العالم ، بحثاً عن الزوجة والمعرفة .

يقول جارجانتوا لأبنه بانتا جروي :

« أريدك أن تتقن اللغات اليونانية واللاتينية والعبرية ، كي تفهم



Pantagruel.

Les horribles et espouēta-
bles faictz & prouesses du tresrenōme
Pantagruel Roy des Dipsodes/
filz du grand geāt Gargan-
tua/ Cōposez nouuelle-
ment par maistre
Alcofrybas
Nasier.

On les vend a Lyon en la maison
de Claude nourry/ dict le Prince
pres nostre dame de Confort.

غلاف الطبعة الأولى من ملحمة رابليه : بانتاجروى
المطبوعة فى مدينة ليون عام ١٥٣٢

الكتب السماوية . وألا تنسى اللغتين الكلدانية والعربية . وقد جعلتك تميل منذ طفولتك للفنون . وأحب لك أن تمارسها جميعاً . وأن تتعلم إلى جانبها علوم الفلك . وأن تحفظ نصوص القانون المدني ، وتقارنها بما تعلمته من نصوص فلسفية . وأحب لذهنك أن يتشوق للعلوم الطبيعية . وأن تفهمها فهماً كاملاً . وأن تدرس كتب أطباء اليونان والرومان والعرب . من دون أن تحرم نفسك في كل ساعة من ساعات النهار ، من قراءة الكتب المقدسة . وبالأختصار ، أريدك أن تكون بحراً لا ينضب من المعرفة».

وقد ظهرت في باريس ، في النصف الأول من القرن السادس عشر ، جماعة « البلياد Pléiade » وهم سبعة من الشعراء الذين هاجموا شعراء البلاغة اللاتينية السابقين ، وحاولوا أن يرسوا قواعد صارمة للشعر الفرنسي الجديد . متغنيين بالطبيعة ، أو داعين للأنسانية ، أو مناجين الرب ، أو مستلهمين الحب . وقد ساندهم البلاط الفرنسي ، حيث عمل رائد هذه الجماعة بيير رونسار Ronsard (١٥٢٤ / ١٥٨٥).

وقد لقب رونسار بأمير الشعراء . وأشتهر بسوناتاته الغرامية الخفيفة والبسيطة ، والتي كثيراً ما كانت تلقى في الحفلات بمصاحبة الموسيقى . وقد نازعه زعامة الجماعة يواقيم ديه بيلاى du Bellay (١٥٢٢ / ١٥٦٠) الذي عاش في أيطاليا أربعة أعوام . وألف بالأضافة إلى عدد من الكتب ، أول مجموعة من السوناتات الفرنسية ، أستخدم فيها

مواضيع وأساليب وكلمات فرنسية خالصة . وقد أتخذت كلمات ديه بيلاي لنشيد المارسيليز الشهير عند قيام الثورة الفرنسية *. ووضع البرنامج الشعري « دفاع وإشهار للغة الفرنسية» متأثراً في كتابته بدفاع سبيروني عن اللغة الأيطالية .

وجدير بالذكر أن ديه بيلاي قد فطن إلى أهمية الطباعة . وأسماها «الأخت العاشرة لآلهة الفنون التسع » . وهي عنده : التاريخ والموسيقى والكوميديا والتراجيديا والرقص والرثاء والأنشودة والفلك والبلاغة .

وقد قامت في ليون ، بوسط فرنسا ، مجموعة أخرى مماثلة للبلياد بقيادة موريس سكيف Scève (١٥١٠ / ١٥٦٤) ولوي لابيه Labé (١٥٢٤ / ١٥٦٦) . وقد تميز الأول بقلق روحي ، أثمر أشعاراً غرامية مميزة . وقيل أنه قد عثر في أڤينيون على قبر لورا حبيبة بترارخ . وأما لوي لابيه ، فكانت زوجة تاجر ليوني ، وقد أشتهرت بجمالها الفائق وشعرها الشاكي .

وقد تميز النصف الثاني من القرن السادس عشر بموجات الشك التي بعثتها كتابات ميشيل مونتين Montaigne (١٥٣٣ / ١٥٩٢). وقد نشأ مونتين « مسيحياً صادقاً » . ويقال أن والده كان يوقظه كل صباح بالموسيقى . وأنه ظل يتحدث إليه باللاتينية وحدها حتى بلغ السادسة من عمره . وقد أصبح مونتين عضواً ببرلمان بوردو . ثم عمل قاضياً في

* أنظر كتابنا « الثورة الفرنسية » في هذه السلسلة .

باريس . وصادق النبلاء والعظماء .

وقد توطدت صداقة مونتين بعد وفاة والده بصديق له ، هو بويسي . فلما فقده أيضاً ، أحس بالخسارة . وحاول أن يرتفع على أحزانه ، بالأعتكاف والقراءة . ثم ترك الدنيا إلى عالم الفلسفة . ورفض المذاهب المعروفة . وطالب بالأهتمام بالأنسان وحده . وحاول أن يجد معاني جديدة للأنسانية . وقد ظن أن لكل سؤال جوابين . وأنه « ليس للسعادة طعم حتى يعرفها من حولك ». وآمن بضرورة التأمل « لكشف خبايا النفس» . وأنقطع منذ عام ١٥٧١ في شاتوه بوردو ، حيث ألف كتابه المقالات Essais . وهو مجموعة من المقالات الشخصية التي أصبح رائداً في كتابتها .

وقد آمن مونتين بفوائد السياحة ، و « ضرورة مقارنة الأحوال والعادات والقوانين ». فزار سويسرا وألمانيا وأيطاليا . ثم عاد الى بوردو كي يصبح عمدة لها . ولكنه أنقطع في قصره طوال وباء أجتاح المدينة وأستمر زهاء ستة شهور ، كتب خلاله بقية كتابه المذكور .

الصراع الديني في فرنسا وسويسرا

تميزت حركة الرينسانس ، في كل مكان حلت فيه ، بسمات عامة واحدة . هي الأهتمام بالكلاسيكيات القديمة ، والعودة إلى أفلاطون . ودراسة وتحديث اللغة القومية . وتزايد الأحساس بالأنسانية . ثم تطوير الآداب والفنون بأشكال جديدة . وأتخاذ وحدة وطابع قومي جديد لأقطار أوربا القديمة .

ففي فرنسا ، تحولت إلى صراع ديني ، أشعل ثورة . وفي هولندا إلى حركة نهضوية وتعليمية ، أثارت قلاقل . وفي ألمانيا وأنجلترا إلى حركات إصلاحية Reformation دينية ووطنية . وقد أعطت تلك الحركات لدول أوربا أشكالها العصرية الجديدة ، التي صبغت الفكر الأوربي المعاصر بآثارها الأقتصادية والسياسية والأجتماعية .

وكان من أوائل من تقبلوا تعاليم الرينسانس في فرنسا ، عالم الدين جاك ليفيفر دايتابل d'Etaple (١٤٥٣ / ١٥٣٦) . الذي تحول من تدريس التعليقات والشروح على أعمال أفلاطون وأرسطو ، إلى ترجمة



كالڤين : نحت على الخشب يعود لعام ١٥٥٩

تلك الأعمال وتدريسها بالفرنسية . ثم أخذ يكتب تعليقاته على الأنجيل. وأعلن أن الأنجيل ، لا الطقوس المسيحية ، هو أساس المسيحية. وقد أصبح ليفيفر أحد رواد الكنيسة البروتستانية والأيفنجيلية . ولكنه لم يترك الكاثوليكية إلى أي منهما ، كما فعل تلميذه جيوم بريسونيه Briçonnet (١٤٧٢ / ١٥٣٤) الذي وضع في الحقيقة أساس الأيڤنچيلية الفرنسية ، وأراد بها « أن تشمل كل ما هو طيب وحقيقي في المسيحية ».

ويلاحظ أن الوحدة بين الأنسانيين والأيڤنچيليين قد أستمرت في فرنسا حتى فجّرها چون كالڤين Calvin (١٥٠٩ / ١٥٦٤) عام ١٥٣٣ بخطابه الشهير الذي ألقاه له صديقه كوب في السوربون. فقد أضطر كالڤين، إثر ذلك الخطاب ، إلى مبارحة فرنسا إلى سويسرا . فذهب الى بازيل . ثم أستقر في چنيف . وأصبح فيها « القوة الروحية » والمحركة للحياة فيها . ثم أختلف مع المسئولين عنها ، وتركها . وأشترط لرجوعه إليها أن يصبح « السلطة الأخيرة » في المدينة . فلما رضخت له المدينة، وعاد الى چنيف، جمع بين القوى السياسية والقضائية والتنفيذية في المدينة . و « لم تعد الكنيسة وسيلة لعبادة الرب ، وانما أداة لجعل الناس لائقين بعبادته ». حتى أضطر معارضوه إلى ترك المدينة . وسجن كالڤين ونفي الباقين منهم .

ثم أخذ كالڤين ينفذ تعاليمه اللاهوتية والسلوكية بالقوة في چنيف .

وقد أعدم رجلاً لأتهامه بكتابة صفحات مخلة بالآداب . وسجن آخرين للعب الورق . وجلد سيدة ، ثم نفاها من المدينة ، لأتهامها بالدعارة . وكان يطلب من أطفال المدينة أن ينقلوا إليه أخبار ما تقترفه أسرهم من ذنوب خارجة عن تعاليمه .

وقد قيل أنه قد أعدم في چنيف زهاء ثلاثين من عاهراتها . وأنه لم يكن رحيماً بأعضاء أسرته ، ومنهم زوجة أبنه . وكان كالڤين قد ولد في أسرة متوسطة بالقرب من باريس . وقد درس اللاهوت في أورليانز وبورج . وأصبح محامياً . ثم تأثر بالأنسانيات . ومنذ عام ١٥٣٣ ، بإيرازموس ومارتين لوثر . فأخذ يناهض الكاثوليكية ، ومن ورائها العرش الفرنسي . وقد كتب عام ١٥٣٦ كتابه « العمد Institutes » في ستة فصول ، زادها بعد ذلك إلى ٨٠ فصلاً . وتمتاز كتاباته بالترتيب والعقلانية . وقد بحث فيها أخلاقيات وعقيدة الرجل المسيحي . وأيد فكرة مارتين لوثر في إنعدام حرية الانسان أمام أرادة الرب . وقد لاقت تعاليمه نجاحاً كبيراً لا في فرنسا وسويسرا فقط ، وإنما في أنجلترا، وخصوصاً أسكتلندا ، ثم الولايات المتحدة الأمريكية .

* * *

وعند وفاة كالڤين عام ١٥٦٤ ، لجأ أعوانه في فرنسا إلى أستخدام القوة ، معتمدين على « حقوقهم التاريخية والقانونية». وأتخذوا أسم الهيجونيين .

وقد حاولت الملكة كاترين « المديتشي » أن تحل تلك الفتنة الدينية سلمياً . فزوجت زعيم الهيجونيين الفرنسيين ، هنري ناڤار Navarre من إحدى بنات عائلتها . ولكن لما فشل الزواج في إنهاء الفتنة ، لجأت كاترين إلى الأساليب العنيفة لعائلتها الشهيرة في فلورانسا . فنظمت في ليلة ٢٤ أغسطس عام ١٥٧٢ مذبحة كاملة للهيجونيين الفرنسيين «وهم في مخادعهم ». وتعرف هذه المذبحة ، وتلك الليلة ، في تاريخ فرنسا بأسم سانت بارتولوميو St. Bartholomew . وقد قتل فيها في باريس ما لايقل عن ألفي شخص . وزاد عدد من قتل في أنحاء فرنسا عن ٢٠ . . . شخص . وفر آلاف الهيجونيين في أعقابها إلى خارج فرنسا ، وخصوصاً إلى انجلترا وهولندا .

وقد عاد هنري ناڤار أثر مذبحة كاترين إلى الكاثوليكية . ولكنه تحول مرة أخرى إلى الهيجونية عام ١٥٧٦ . وقاد الهيجونيين الفرنسيين في ثورة ، كادت أن تحتل باريس . ولكنه تراجع بهم عنها ، وقال قولته الشهيرة : الظفر بباريس يستأهل مني أن أصبح كاثوليكياً . ثم عاد مرة أخرى إلى الكاثوليكية . وقد أصبح منذ ١٥٨٩ ملكاً لفرنسا ، بأسم هنري الرابع . وصدر في عهده قانون التسامح ، المعروف بقانون نانت ، والذي سمح للهيجونيين بموجبه أن يحتفظوا بمذهبهم ، وأن يمارسوا شعائرهم من دون قسر أو تدخل من الكنيسة أو الدولة . وأن يقيموا - إذا أرادوا - في أماكن خاصة بهم . يسورونها ويحرسونها بقوات خاصة

مسلحة يحكمونها .

وقد قتل هنري ناڤار عام ١٦١٠ بخنجر كاثوليكي متعصب .

إمتداد الرينسانس
إلى هولندا وألمانيا وأسبانيا

كانت المدن الفلمنكية على أتصال دائم منذ بدء الرينسانس بالمدن البورجوندية ، وعن طريقها بالمدن الأيطالية . وقد تم ، عن طريق هذا الأتصال ، تطوير الفنون الغوطية في شمالي أوربا على يدي الفنان الهولندي چان ڤان أيك van Eyck (١٣٩٠ / ١٤٤١). الذي عمل في أيطاليا ، خصوصاً في تزيين قصر فيدريكو دا مونتفيلتيرو في أوربينو . وأتخذ من الموضوعات الدينية الأيطالية نماذجاً له . وقد أمتاز ڤان أيك بدقة الصنعة ، والبراعة في التفاصيل . وحسن أختيار الألوان . وعندما عاد إلى هولندا ، عمل مع أخيه هيوبرت على وضع أسس الرسم الحديث فيها . وقد أستطاعت المدرسة الفلمنكية بفضله أن تنافس بأمتيازها نواحي كثيرة في المدرسة الأيطالية .

كذلك زار أولبريشت ديرار Dürer (١٤٧١ / ١٥٢٨) أيطاليا مرتين. الأولى عام ١٤٩٤ « لأكتشاف أسرار الفن الأيطالي التي عجز

عن تحديدها في ألمانيا ». والثانية بعد ذلك بأحد عشر عاماً ، في ١٥٠٥ . وخلال هاتين الزيارتين ، حفظ أشعار بوليتزيانو . وتتلمذ على مهندسي وفناني أيطاليا ، خصوصاً مانتيني . ثم عندما عاد إلى نورمبرج ، ألف كتاباً عن الفن الأيطالي ، ذاع ذيوعاً كبيراً بين الأنسانيين والفنانين . ولكن زوجة ديرار كانت تعتبر الوقت الذي ينفقه زوجها مع الفلاسفة ، وفي كتابة الكتب ، وقتاً ضائعاً . وتنصحه بأن يفعل ما نجح فيه ، وأستطاع أن يجلب له الشهرة والمال الوفير ، وهو الرسم والحفر .

وكان ديرار قد ولد في نورمبرج من أب هنغاري . وتعلم الفنون الغوطية فيها . ثم حاول أن يتعلم فنون الرينسانس الجديدة . ولكنه لم يستطع التخلص من النبرة الغوطية والجرمانية تخلصاً كاملاً حتى آخر أيام حياته . وقد أنغمس في أحوال أوربا الدينية والسياسية ، وطاف أنحائها في نصرة مارتين لوثر . وكان محباً للأستطلاع ، يذهب إلى أي مكان ، لرؤية أى شيء جديد . وقد مات بسبب رحلة له الى زيلندا لرؤية حوت أنحسرت عنه مياه البحر .

وأما بيتر بول روبنز Rubens (١٥٧٧ / ١٦٤٦) فقد نشأ في أمستردام . ثم عمل لجونزاجا مانتوا في أيطاليا ، رساماً ودبلوماسياً . وقد عاش في روما فترة قصيرة . وعندما عاد إلى أنتويرب ، خدم الأمبراطور فيليب الثاني الأسباني ، ثم الملك شارل الأول الأنجليزي .

وقد أشتهر بأعماله الكبيرة والممتازة ، التي بدأ بها عصر الباروك الأوربي .

وقد تأثر بروبنز ، هيرمينتزون ڤان ريجن رامبرانت Rembrandt (١٦٠٦ / ١٦٦٩) . فلم يتخلص قط من خطوطه وألوانه . وكان رامبرانت قد ولد في لندن . ولكنه عمل طوال حياته في أمستردام . ومع ذلك ، لم يلاق في حياته النجاح المالي الذي كانت تؤهله له مقدرته وزواجه من سيدة واسعة الثراء . فلاقى صعوبات مادية كثيرة . وقد تميزت صوره بوضوح تفاصيلها وقوة ألوانها .

وكان الأمبراطور الأسباني فيليب الثاني قد ورث عن والده ، شارل ، عدة لوحات لتيبيتيان وتينتورتو ، زين بها قصره الجديد الذي بناه قرب مدريد: الأسكوريال . وقد حاول فيليب أن يشجع الفنانين الأسبانيين على أتمام أعمال مختلفة ، تملأ حجرات القصر الكثيرة . ولكنه لم يعجب بأعمال كرياكوس ثيوتو كوبوليس ألجريكو El Greco (١٥٤١ / ١٦١٤) . فترك ألجريكو مدريد ، وعاش مع شعراء وفلاسفة وفناني الرينسانس الأسباني في توليدو ، ولم يلاق في حياته قط النجاح المادي الذي كان يستحقه .

وكان ألجريكو يوناني الأصل . وقد ولد في أسبانيا ، وتعلم في كريت طرق رسم الأيقونات . ثم تتلمذ في البندقية على تينتورتو في الشكل ، وعلى تيتيان في الألوان . ثم طور فنه الخاص به في توليدو .

والذي يتميز بالباروكية ، وأستطالة الأجسام ، وبرود وتنافر الألوان .

وقد أحب ألجريكو وأحتفظ ببعض صوره ، الرسام الأسباني ديجو رودريجيه ڤيلاسكويز Velasquez (١٥٩٩ / ١٦٦٠) الذي تأثر أيضاً برسوم تيتيان وجيورجيون العارية . ولكن ڤيلاسكويز كان يرسم ظهور عارياته ، لا صدورهن ، حرصاً منه على تزمت الأسبانيين .

وقد نجح ڤيلاسكويز في مدريد نجاحاً فنياً ومادياً فائقاً . وأصبح رساماً للأمبراطور الأسباني . وقد أشتهر بتوفيق خطوطه ، ورصانة وجمال ألوانه .

وقد أعقب هذه النهضة الفنية في أسبانيا نهضة أخرى أدبية . كان من أهم أعمدتها الشاعران والكاتبان الدراميان لوب ديه ڤيجا de Vega (١٥٦٢ / ١٦٣٥) وميجيل سيرڤانتيس Cervantes (١٥٤٧ / ١٦١٦) . وقد أعتبر الأول أستاذاً للدراما الأسبانية الحديثة . وله أنتاج ضخم ، أندثر أكثره ، ولا يزال يبقى منه ٢٦ كوميديا و ٢٤ دراسة . وقيل أن كوميدياته ودراساته كانت قد تجاوزت ٢٠٠٠ .

وأما سيرڤانتيس ، فقد ذهب عام ١٥٦٩ إلى أيطاليا . وحارب في معركة ليبانتو بعد ذلك بعامين ، حيث فقد أستخدام يده اليسرى . وفي طريق عودته إلى أسبانيا ، عام ١٥٧٥ ، وقع في أسر القراصنة المور ، وبقي خمسة أعوام يخدم كعبد في الجزائر . ثم دفع له الرهبان ٥٠٠ ديكات ، فأفرج عنه ، وعاد إلى أسبانيا . ولكن متاعبه لم تنته مع

عودته ، ثم زواجه ، وتوظفه في البحرية الأسبانية . فأخذ ينتقل مع أسرته في أنحاء أسبانيا . وقد « حرمته » الكنيسة الأسبانية مرة ، لأستيلائه على بعض أموالها . وسجن مرتين . وأتهم بالقتل مرة . ثم أخذ ، منذ عام ١٦٠٥ ينشر رائعته « دون كيشوت Don Quixote ». فتحسنت أحواله . وأستقر في مدريد ، هانئاً راضياً حتى آخر أيامه .

قيام البروتستانتية فى ألمانيا

يتجاوز دور هولندا وألمانيا في الرينسانس الأوربي النواحي الفنية ، إلى النواحي الدينية والفلسفية والأنسانية . فأن روح الرينسانس الجديدة كانت قد نالت من هيبة رجل الدين . وبعثت في أفراد الشعبين الهولندي والألماني روح « البحث عن الحقيقة التاريخية ». ومحاولة «أرضاء ضمير الفرد الديني ». وقد قامت المدن الهولندية ، وفي مقدمتها ليدن ، بدور كبير في طبع ونشر الكتب الجديدة ، التي أزالت الحواجز والجهالات، ورددت التساؤلات ، والسعي وراء الحقائق .

يضاف إلى هذا أحساس الفرد الألماني المتزايد منذ هذا الوقت ، بقوميته . فنجد أولريش ڤون هاتون Von Hutton (١٤٨٨ / ١٥٢٣) ينشر محادثاته «المتفرجون Inspicieutes» في الدفاع عن ألمانيا وزعيمها الديني مارتين لوثر . من دون أن يمس من قريب أو بعيد الناحيتين الأقتصادية والأجتماعية لغالبية هذا الشعب .

وأما إيرازموس (الذي نتحدث عنه في الفصل التالي) وفيليب

ميلانشتون Melanchthon (١٤٩٧ / ١٥٦٠) فيتزعمان مع مارتين لوثر Luther (١٤٨٣ / ١٥٤٦) الحركة الأصلاحية Reformation . ويحاولان أن يصالحا بين الكاثوليك ومعارضيهم . ولكن تطرف مارتين لوثر يخيفهما. فيتراجعان .

وكان ميلانشتون قد درس اليونانية في شبابه ، ولقب بأستاذ الجيل . وأشتهر بمؤلفه الجامع « مواضع عامة في اللاهوت Loci Communes Rerum Theologicarum ».

وكان مارتين لوثر قد ولد في إيسناخ ، من أب عمل بالمناجم، ثم تيسرت أحواله ، فأصبح مالكاً لعدد منها . وقد علمه والده في أفضل جامعات ألمانيا في ذلك الوقت : إيرفورت . وكانت مسرح صراع بين الأنسانيين واللاهوتيين . وقد أراده والده أن يصبح محامياً . ولكنه شعر عندما تخرج من الجامعة عام ١٥٠٥ ، أن « يد الرب تحيط به » . وفجرت عاصفة رعدية صادفها في طريقه أيمانه ، فدخل دير الأوجستنيين. وقد توثقت علاقاته في الدير برئيسه : شتوا بيتز . وعندما أصبح شتوا بيتز أستاذاً للفلسفة في جامعة ويتنبرج الجديدة ، أخذه معه للتدريس بها .

وقد تعلق مارتين لوثر في ويتنبرج بأعمال إيرازموس . وأخذ يدّرس ترجمته للأنجيل لتلامذته . كذلك أعجب بلورانزو ڤالا ، وترجم له عام ١٥٣٧ كتابه « وصية كونستانتين ».

وفي عام ١٥١٠ ، زار مارتين لوثر روما ، وأظهر فيها عظيم تدينه وخشوعه . فزحف على ركبتيه فوق سلالم سانت بيتر . وتمسح بالآثار المسيحية . ولكنه لاحظ - على ما ذكر بعد ذلك - أنغماس الكرادلة ورجال الكنيسة في الملذات ، وأستهتارهم بأصول الآلهيات .

وعندما عاد مارتين لوثر إلى ويتنبرج ، أنتقد بعض تصرفات الكنيسة . ومن أهمها بيع صكوك الغفران ، التي تحدثنا عنها ، والتي كانت قد تزايدت في هذا الوقت ، زيادة كبيرة . فعلق في ٣١ أكتوبر عام ١٥١٧ مواده الخمسة والتسعين على باب كاتدرائية ويتنبرج . وقد أعتبرت هذه الوثيقة بعد ذلك وثيقة « الأصلاح الأساسية للمذاهب المعارضة للكاثوليكية » . ثم ترجم مارتين لوثر تلك الوثيقة إلى الألمانية، وطبعها باللغتين اللاتينية والألمانية ، ووزع نسخها في أنحاء أوربا . وقد أيده الأنسانيون فيها من فورهم : إيرازموس في هولندا ، وتوماس مور في أنجلترا ، وميلانشتون في فرنسا . ووقف الى جانب الأولان شعبي هولندا وأنجلترا . ولكنهم أضطروا جميعاً للتراجع ، حين لمسوا تطرف مارتين لوثر ، وشدة القوات التي عارضته .

ولكن هذا التراجع من بعض دعاة الأصلاح المسيحي ، لم يفقد مارتين لوثر حماسته . وأعتبر « أن الاعتبارات السياسية والأجتماعية عند إيرازموس ، كانت أقوى من الأعتبارات الدينية ». وكتب له عام ١٥١٩ مطالباً بتأييده . ولم يتأخر إيرازموس عن طلب الحماية لمارتين لوثر .

فكتب لأسقف ماينز ، يدعوه لفرض حمايته على مارتين لوثر . ولكن إيرازموس قدر أن تطرف مارتين لوثر في دعوته ، ثم فشله وهزيمته ، سيطيح بالمصلحين المعتدلين والمتطرفين على السواء في أنحاء أوربا ، فآثر الأبتعاد عنه .

وفي ١٥٢٠ ، أصدر البابا قراره بأعتبار مارتين لوثر ملحداً . وأمهله ٦٠ يوماً لسحب مواده الخمسة والتسعين ، وإلا « حرمته » الكنيسة . وقد رد مارتين لوثر على البابا ، بأحراق ذلك القرار علانية . وحرق معه أيضاً القانون الكنسي . ثم نشر في ذلك العام رسالته «خطاب إلى الشعب الألماني An de Christlichen Adel Deutscher Nation » . وبعده بقليل كتابه « عن الحرية المسيحية Von der Freiheit eines Christenmenschen ». وقد تحدى مارتين لوثر في كتابه الأخير سلطة البابا الدنيوية . ونادى بألغاء الطقوس والشعائر الكاثوليكية . وأكد أن المسيحية تقوم على الأيمان وحده :

« إن الحرية الوحيدة التي يجب أن نسعى اليها ، هي الحرية الروحية . والحقوق التي يجب أن نطالب بها ، هي تلك التي تتعلق بحياتنا الروحية».

وفي أبريل عام ١٥٢١ ، أستدعي مارتين لوثر للمثول أمام دايت فورميز . ولكنه رفض عند أستجوابه ، الرجوع عن شيء من أقواله . وفي طريق عودته من فورميز إلى ويتنبرج ، أختطفه الدوق فريدريك ،

دوق ساكسونيا . وأحتجزه في قلعة نائية بمقاطعته . وكان الأمبراطور شارل قد أصدر أمراً بالقبض على مارتين لوثر . وأخذ يحرق كتبه . ولكن أختفاء مارتين لوثر ، نشر أشاعات عديدة عن قتله . فهدأت العاصفة بعض الهدوء .

ثم أخذ مارتين لوثر منذ العام التالي ١٥٢٢ ، في ترجمة الأنجيل إلى الألمانية . ووضع مع فون هاتون ، أسس كنيسة ألمانية جديدة: علمانية وبسيطة .

ويلاحظ أن مارتين لوثر قد جمع حوله منذ بداية حركته الأنسانيين والوطنيين الألمان . وشمل الأخيرون الأمراء ، والفرسان ، والطبقة المتوسطة الجديدة من التجار والصناع والفلاحين . ولكن الأولين سرعان ما تخلوا عنه ، لما عدوه تطرفاً منه . ثم قامت عام ١٥٢٢ « حرب الفرسان » حين أراد أمراء ألمانيا الأستيلاء على أراضي الكنيسة الكاثوليكية . فتصدى لهم أسقف بريفز ، وهزمهم . وخسر مارتين لوثر بهزيمتهم أهم المدافعين عنه . ثم قامت في عامي ١٥٢٥ و ١٥٢٦ ثورة الفلاحين ، حين حاول الفلاحون الألمان أنتزاع الأراضي التي يزرعونها بالقوة من أيدي الأقطاعيين . فأيد مارتين لوثر الأقطاعيين ضد الفلاحين . وقتل في تلك الحرب حوالي ١٠٠٠٠٠ فلاح . وخسر لوثر بأنحيازه إلى الأقطاعيين أكثر الفلاحين ورجال المدن في جنوبي ألمانيا . فترك كثير منهم البروتستانية ، وعادوا إلى الكاثوليكية .

إيرازموس : أول الأنسانيين

ولد ديزيديريوس إيرازموس Erasmus (١٤٦٦ / ١٥٣٦) في ديفنتر بهولندا ، وكان أبناً غير شرعي لقسيس كاثوليكي ، كان يعيش مع والدته دون أن يستطيع الزواج منها . وقد أنجبا إلى جانبه شقيقاً أكبر هو بيتر.

وقد ذهب ديزيديريوس إيرازموس في طفولته إلى مدرسة دينية هي مدرسة « أخوان الحياة العامة » كانت تحاول أن تطبق حرفية الكاثوليكية على الحياة . ثم فقد ، وهو في الرابعة عشرة من عمره ، أمه . وبعد ذلك والده . وأرسله كافلوه من أقاربهما إلى دير في بواه لي ديك . وقد ترك إيرازموس ذلك الدير عام ١٤٨٨ ، وذهب إلى دير آخر أوجستيني في شتيين . وجدير بالذكر أن إيرازموس لم يُخف كراهيته لحياة الأديرة بعد ذلك . بل وكره بسببها وطنه ، هولندا . ولكنه وقع في مكتبات تلك الأديرة على الكتب الكلاسيكية التي أحبها ، وتعلق بها ، ولم يكن من الممكن - في ذلك الوقت - أن يجدها في مكان آخر . بل وأحب



إيرازموس : بريشة ديرار

ملمسها، وتقليب صفحاتها بقية حياته . فهو من هذه الناحية أنساني خالص ، أحب القراءة والكتابة ، وعمل بهما .

وقد ترك إيرازموس بعد ذلك حياة الأديرة ، وطرح عنه الملابس الكهنوتية الخشنة (من دون إذن البابا) وعاش حياة علمانية خالصة .

ثم أصبح إيرازموس قسيساً في ١٤٩٢ . وألتحق ببلاط أسقف كامباري . وذهب بعد ذلك بثلاث سنوات إلى باريس ، وألتحق بكلية مونتاجيو بها . وقد دَرَس بهذه الكلية أيضاً كالڤين ، ومن بعدهما رابليه (السابق الأشارة إليهما) . وقيل أن إيرازموس قد سئل يوماً : إذا كنت قد درست في مونتاجيو، فلا شك أنك محمل بالعلوم ؟.

وأنه أجاب : ليس بالعلوم ، وإنما بالبق .

والمعروف أن رابليه قد شكا أيضاً من بق كلية مونتاجيو .

* * *

وكان إيرازموس قد وقع على لورانزو ڤالا . فترجم له كتابه Elegantia وبعض ملاحظاته على العهد الجديد . وألف متأثراً به «في معارضة الجهل Antibarbari ».

ثم ذهب عام ١٤٩٩ إلى أنجلترا . وزار جامعة أكسفورد فيها . وصادق توماس مور More (١٤٧٨ / ١٥٣٥) وأصحابه من الأنسانيين الأنجليز* . وقد أعجب بفضائلهم وأنسانيتهم . ولعبت

---

* أنظر كتابنا « الثورة الأصلاحية الأنجليزية » في هذه السلسلة .

رسائله اليهم ، وإلى غيرهم من الأنسانيين في أنحاء أوربا ، دوراً كبيراً في بلورة أفكاره .

وعندما عاد إيرازموس إلى أوربا ، حدد غاياته المقبلة ، في أن يستخدم علوم القدماء في دراسة الأنجيل ، وأن « يصلح بين الكلاسيكيات والتعاليم المسيحية ». وقد أستقر في باريس فترة ، درس فيها الأغريقية . ونشر عام ١٥٠٠ مختارات من الكلاسيكيات Adages أحتوت على ٨٠٠ قطعة قصيرة ، زادها في الطبعات التالية حتى بلغت ٣٠٠٠ مقالة كبيرة .

يقول إيرازموس في أحد خطاباته :

« وقد يحدث ، بل كثيراً ما يحدث ، أن يكون الأسقف أبلهاً أو سكيراً . وقد يصدر أمراً يتحتم على أبناء أسقفيته أن يطيعوه . فماذا يكون هذا الأمر ؟. أمراً لمراعاة الفضيلة ؟. أمراً بالأبتعاد عن الخمر ؟. أمراً بالا يرددوا الأكاذيب ؟. لا . لا شيء من هذا . بل سيتعلق الأمر بوجوب عدم درس الأغريقية . بعدم تثقف النفس . وقد يسمح لأبناء الأسقفية بأرتكاب جميع الخطايا . وبأن يسعوا وراء العاهرات . وقد يملأ الحقد قلوبهم . وتمتليء نفوسهم بالشر . وقد لاتقع عيونهم على الكتاب المقدس . ولاشيء فى هذا كله . فهم لم يحنثوا يميناً . وهم أعضاء ممتازين فى جماعتهم . بينما لو عصى أحدهم الأمر ، ودرس الأغريقية ، فسيجد جزاءه الرادع والفوري ».

وقد أستقر إيرازموس منذ عام ١٥٠٢ في لوڤان ببلچيكا . ولم يعد بعد ذلك إلى وطنه هولندا إلا زائراً . ونشر في ١٥٠٣ « مرجع الجندي المسيحي Enchiridion Militis Christiani » الذي يقول فيه :

« إن من المسيحيين من يفاخر بعدد الصلوات التي قام بها كل يوم ، وكأن هذا أهم ما في الحياة . وكأن هذا هو كل ما طلبه منا المسيح . ثم يعودون إلى سابق خطاياهم بعد كل مرة ، ينتهون فيها من صلاتهم . إننا نتعبد للرسل ، ونلتمس آثارهم ، ونريد أن نكسبهم إلى صفنا . فلنقلد إذن إيمانهم وتسامحهم . ولعلنا نكسب من وراء هذا أكثر مما نكسب من المشي إلى روما عشرات المرات » .

وفي ١٥٠٤ ، زار إيرازموس أيطاليا . ومكث في بولونا عدة شهور، درس خلالها علوم وآداب الرينسانس . وأنتهي إلى أن تعاليم القدماء لاتتعارض في شيء مع المسيحية . وبدأ أنحيازه الذي أستمر بقية حياته للأنسانية . ونقده للتصرفات الطائشة لبعض رجال الدين .

وقد عرج إيرازموس ، خلال هذه الرحلة الأيطالية التي أستمرت ثلاثة أعوام على روما . ثم زار الطابع مانوتيوس في البندقية . وأتفق معه على طبع طبعة جديدة ومزيدة من كتابه «المختارات». والطريف أن الطابع قد أهداه خمس نسخ من الكتاب المطبوع ، فلم يستطع إيرازموس قبولها منه حتى أشترى له الطابع حصاناً خاصاً حملها عليه .

ثم أتجه إيرازموس عام ١٥٠٩ بمتاعه وأحماله إلى أنجلترا . ونزل مرة

أخرى ضيفاً على صديقه توماس مور . ويقال أنه قد ألف عنده كتابه « في مدح الغباء Encomium Moriae » خلال أسبوع واحد .

ويلاحظ أن إيرازموس قد أحسن (على ما فعل مارتين لوثر) أستغلال أمكانيات الطباعة الجديدة وقتئذ في أوربا . وأن هذا الكتاب الأخير قد طبع في حياته أربعين مرة .

وكانت شهرة إيرازموس قد عمت أنحاء أوربا . وأصبح علماً في اللاهوت والعلوم والآداب . وضيفاً يلاقي الترحيب في بلاطاتها ومحافلها . وقد عينه الأمبراطور شارل سكرتيراً في بلاطه . وكتب له إيرازموس « تربية أمير مسيحي Institutis Principis Christiani ».

وفي الزيارة الثالثة لأيرازموس لأنجلترا في ١٥١١ ، زار جامعة كامبردج . وتردد على أصدقائه في تلك البلاد ، ومنهم توماس مور . ويقال أن العالم كله كان يحب أستضافة إيرازموس ، ويأنس بأحاديثه ، ماعدا زوجة مور، التي كانت تستنكف زياراته الطويلة لمنزلها ، وحديثه الذي لاينقطع باللاتينية التي لاتفهمها إلى زوجها .

ثم أخذ إيرازموس يجوب أنحاء أوربا . وينشر ترجماته لسانت چيروم وسانت أوجستين . ويعيد نشر نصوص الأنجيل باللاتينية والأغريقية في صفحات متقابلة . وهي النصوص التي حازت رضاء البابا ليو العاشر .

وعندما علق مارتين لوثر مواده على باب كاتدرائية ويتنبرج - كما أشرنا - كتب إيرازموس إلى صديقه چون لانج من لوڤان :

« أنهم سيدفعون بهذا العمل ، كل جانب على التصلب والعناد . أنني أرى في الملكية الحاضرة للبابا في روما وباء للمسيحية . ولكنني لا أظن أن من الحكمة معالجة هذا القرح الدامي ، بالتصدي له علانية . فمن الأفضل ترك هذا الأمر للأمراء . وهم لا شك سيضطرون الآن للأنحياز للبابا . للم الشمل ، والحصول على الأغنام ».

وفي ١٥١٨ ، نشر تلاميذ إيرازموس في باريس كتابه «المحادثات Colloquies ». ولكن موقفه كان قد بدأ يتحرج أمام ثورة مارتين لوثر. فأن أفكار إيرازموس كانت « أنسانية مسيحية ، وسانت بول يفضل عنده سانت بيتر ». ولم يكن إيرازموس يوافق مارتين لوثر أو كالڤين على « عجز الأنسان الكامل أمام أرادة الرب ». إذ كان يرى في هذا التسليم تعارضاً مع نزعته الأنسانية ، في حرية الأنسان وطيبة قلبه .

وكان إيرازموس يشارك مارتين لوثر الأعتقاد في سوء نظم وتعاليم الكنيسة الكاثوليكية ، وضرورة إصلاحها . ولكنه كان يختلف معه ، في أعتقاده أن الأمر لن يكون سهلاً ، بسبب القوى والمصالح التي تسندها وتستفيد منها . ويقول أن مناقشة العقائد لن تؤديء إلى أتفاق. وأنه يجب الأبتعاد عن تناول هذا الموضوع مصادمة ، والأحتيال على تغييره بالحيلة أو بالتدريج .

وقد كتب مارتين لوثر عام ١٥٢٠ لإيرازموس يستحثه على أعلان آرائه في تأييد البروتستانتية . وكتب له الرسام ديرار :

« إيه يا إيرازموس روتردام . لماذا تتوقف في الطريق ؟. أستمع لنداءاتنا ، أيها الفارس المسيحي ، وتقدم راكباً إلى جوار المسيح . وأحمي الحقيقة . وتوج جبهتك بتاج الشهداء ».

وفي هذه الأثناء ، كانت الكنيسة وبلاط الأمبراطور شارل تحرض إيرازموس على مارتين لوثر . فأختار إيرازموس أن يهاجم مارتين لوثر في موضوع حرية الضمير . وكتب كتابه « عن حرية الضمير De Libero Arbitrio » الذي رد عليه مارتين لوثر بكتاب آخر هو « عن عبودية الضمير De Servo Arbitrio ». وقد وصف لوثر إيرازموس في كتابه بأنه «غير مؤمن ». وبأن الناحية الأنسانية فيه قد تغلبت على الناحية الدينية . وهناك من المؤرخين اللاحقين من يتفق على هذا مع مارتين لوثر ، ويقول أن إيرازموس قد تراجع في نهاية حياته في كثير من آرائه ، حتى ما كان منها لاهوتياً خالصاً .

وقد ترك إيرازموس بعد ذلك لوڤان إلى سويسرا ، وأستقر في بازيل. ولكن الكاثوليك هناك أتهموه بأنه كان « الدجاجة التي وضعت البيضة التي فقست البروتستانتية والكالڤنية ». وقد ترك بازيل فترة إلى فريبورج بجنوب ألمانيا ، ثم عاد إلى بازيل مرة أخرى . وكانت الكنيسة الكاثوليكية قد منعت بعض كتبه من التداول . وأصدر مجمع ترينت قراراً بأعتباره ملحداً . فأوقف إيرازموس كل أعماله ، ومن بينها ترجماته للأنجيل . ولم يكتب بعد ذلك إلا كتاباً واحداً عام ١٥٣٤ ، هو

« توافق الكنيسة Ecclesiae Concordia ».

وقد توفي إيرازموس في بازيل بسويسرا عام ١٥٣٦ عن سبعين عاماً.

أستقلال الكنيسة الأنجليزية

لم تكن إنجلترا ، على بعدها الجغرافي من أيطاليا ، على جهل بحركة الرينسانس فيها . فأن الملك إدوارد الرابع (١٤٤٢ / ١٤٨٣) كان (على ما سبق أن أشرنا) معجبا بدوق أوربينو . وقد أهداه أرفع الأوسمة الأنجليزية في ذلك الوقت : الجارتر . وذهب كاستليوني إلى أنجلترا ، فتسلم الوسام نيابة عن الذوق ، وعاد به الى أوربينو .

كذلك كلف الملك إدوارد الدبلوماسي والمؤرخ الأيطالي بوليدوررو ڤيرچيليو Virgilio (١٤٧٠ / ١٥٥٥) بكتابة تاريخ أنجلترا . فكتب ڤيرچيليو أول تاريخ علمي لهذه البلاد Anglica Historia متضمناً حوادث وأساطير أنجلترا منذ فجر التاريخ حتى ذلك الوقت . وقد أستعان بكتابات ڤيرچيليو بعد ذلك ، كُتّاب الدراما الأنجليز في نهاية القرن السادس عشر ، وعلى رأسهم ويليام شكسبير* Shakespeare (١٥٦٤ / ١٦١٦). وجدير بالذكر أن فيرچيليو قد تعرف عند حضوره

* أنظر كتابنا « شكسبير » في هذه السلسلة .

إلى أنجلترا عام ١٥٠٢ على توماس مور وقدره تقديراً كبيراً ، وصادقه بقية حياته .

وعند وفاة هنري السابع (١٤٥٧ / ١٥٠٩) صنع له المثال الفلورانسي پيترو توريچيانو Torrigiano (١٤٧٢ / ١٥٢٢) تمثالين برونزيين ، له ولزوجته إليزابيث يورك . وقد أقيما فوق المدفن الملكي في كاتدرائية وستمنستر . ويعتبر هذان التمثالان البداية الحقيقية للفن الباروكي التيودوري في أنجلترا . وقد لاحظ المفكر الأنجليزي فرانسيس بيكون Bacon (١٥٦١ / ١٦٢٦) بعد وضع التمثالين ، أن الملك هنري قد ضمن بوجودهما « عظمته ميتاً بأكثر مما فعل حياً ».

ويلاحظ أن أهم الرجال الذين أحاطوا بالملك هنري الثامن (١٤٩١ / ١٥٤٧) بعد ذلك ، كانوا من رجال الرينسانس ، ومناصري العلوم والآداب والفنون ، ومؤيدي الأنسانية . وكان من أبرز هؤلاء الكاردينال توماس ولسي Wolsey (١٤٧٥ / ١٥٣٠) الذي خدمه وأخلص له ، حتى غضب عليه هنري الثامن لعدم نجاحه في تطليقه من كاترين أراجون والزواج بآن بريلين (مما فصلناه في كتابنا بهذه السلسلة هنري الثامن وزوجاته الست) . وكان هذا هو السبب الرئيسي في أنقلاب هنري الثامن على روما. بعد أن أيد موقفها ضد مارتين لوثر ، وأطلق عليه أسم «الكافر» . ثم عاد يجاريه في الدعوة لأستقلال الكنيسة الأنجليزية عن روما ، وضرورة إخضاعها للدولة الأنجليزية . مثلما خضعت الكنيسة

الألمانية للأمراء الألمان ، وأنفصلت عن روما .

وكان توماس كرانمر Cranmer (١٤٨٩ / ١٥٥٦) الذي عمل سكرتيراً لولسي ، ثم أنقلب عليه عندما غضب هنري الثامن على ولسي، قد عاش سنوات طويلة في أيطاليا . وقد نجح كرانمر في تطليق هنري الثامن من كاترين أراجون ، وتزويجه بآن بويلين . ثم عمل على تصفية الأديرة الكاثوليكية في أنجلترا ، وإخضاع الكنيسة الأنجليزية الأنجليكانية خضوعاً كاملاً للملك . ولكن هنري الثامن غضب عليه هو الآخر ، حين ورطه كرانمر في الزواج بآن كليف .وقد أعدمته كاترين أراجون - بعد ذلك - عندما تولت العرش .

وكان توماس مور قد تتلمذ في أكسفورد على ويليام جروكين Grocyn (١٤٤٦ / ١٥١٩) وتوماس ليناكر Linacre (١٤٦٠ / ١٥٢٤) . ثم عمل توماس مور محامياً ، وتعلق بالفلسفات والعلوم والآداب والأنسانيات الجديدة . ولكنه أنزلق إلى السياسة . وأنتخب عام ١٥٠٤ في البرلمان الأنجليزي . ثم أوفد إلى هولندا مبعوثاً لهنري الثامن. وهناك أهتدى إلى فكرة كتابه « يوتوبيا Utopia » الذي نشره عام ١٥١٦ . وكانت لمور قدرة كبيرة على الأقناع . حتى أن إيرازموس قد ذكر أنه : لو حاول مور أقناعي بضرورة الرقص على الحبل ، لما قويت على رفض مايقول .

وقد أصبح مور وزيراً لهنري الثامن في ١٥٢٩ . ولكنه لم يبق في

منصبه سوى ثلاث سنوات . ثم أستقال منه ، ولازم بيته . وقد حاكمه هنري الثامن وقتها ، ولكن المحكمة برأته . ثم عاد هنري الثامن فحاكمه مرة أخرى عام ١٥٣٥ . وأمر بقطع رأسه .

ويلاحظ أن مور وأستاذيه جروكين وليناكر ، وجون كوليت Colet (١٤٦٧ / ١٥١٩) كانوا أخلص أصدقاء إيرازموس في أنجلترا . وقد أنفق كل من جروكين وليناكر سنوات كثيرة من حياتهما في أيطاليا . وأدخل أولهما دراسة الأغريقية إلى جامعتي أكسفورد ثم لندن . وعاد الثاني بعد دراسته للغتين الأغريقية واللاتينية ، كي يترجم لجالين ، ويؤلف في قواعد اللغة اللاتينية . وقد أصبح لينكر بعد ذلك طبيباً خاصاً لهنري الثامن . وأسس كلية الجراحين الملكية في لندن .

وأما كوليت - الذي ربما كان في حياته أقرب الناس إلى قلبي إيرازموس ومور - فقد عمل عميداً لكلية سانت بول باكسفورد . وأشتهر أسمه كدارس للأنسانية . وقد راجع له إيرازموس كتاباً ألفه في النحو اللاتينى .

ويقال أن إيرازموس هو الذي أرسل الرسام الألماني هانز هولبين الصغير Holbein (١٤٩٧ / ١٥٤٣) إلى مور . وأن هولبين قد عاش في منزل مور ثلاث سنوات كاملة ، كأحد أفراد عائلته . وقد قدمه مور لأصدقائه من الأنجليز ، فرسمهم جميعاً . كما رسم أيضاً الملك هنري الثامن ، ونفذ له بعض الأعمال الفنية الأخرى . وقد تردد هولبين بعد

زيارته الأولى لأنجلترا مرات على أوربا ، ثم أستقر منذ عام ١٥٣٠ فيها.

ويلاحظ أن بعض رجال الدين الأنجليز ، قد عارضوا طويلاً محاولات هنري الثامن فصل الكنيسة الأنجليزية عن روما ، وإخضاعها للملك . وكان على رأس هؤلاء المعارضين أسقف كانتربرى : ريجنالد پول Pole (١٥٠٠ / ١٥٨٠) . وقد هرب پول من أنجلترا وقتها ، وذهب مع عدد كبير من أنصاره إلى أيطاليا . وعاشوا جميعاً في بادوا . وعندما توفي هنري الثامن ، وتولت الحكم أبنته من كاترين أراجون ماري - وكانت تبطن الكاثوليكية - أعادت ذلك المذهب إلى أنجلترا . وأستدعت پول ، وعينته كاردينالاً كاثوليكياً لأنجلترا . وأخذ پول يضطهد بالتالي أبناء الأنجليكانية ، حتى دارت الدنيا دورة جديدة ، بعد وفاة ماري ، وأستقرت الأنجليكانية نهائياً في انجلترا.

* * *

وقد شهدت الدراما الأنجليزية إنقلاباً كبيراً في أواخر القرن السادس عشر ، أي زمن تولي إليزابيث الأولى (١٥٥٨ / ١٦٠٣) عرش البلاد . فقد بدأت إليزابيث حكمها ، ثم أنهته ، بأنقلابين واضحين في الحديث والكتابة للغة الأنجليزية . وصاحب توليها العرش كوكبة من الكتاب والشعراء ، الذين آمنوا بالرينسانس ، وأخذوا بقيمه وأساليبه الأنسانية . وكان على رأس هؤلاء الكتاب والشعراء شكسبير ، الذي كان محيطاً

إحاطة كاملة بعلوم عصره . وقد قرأ مونتين بترجمة فلوريو . وأخذ عن تاريخ ڤيرجيليو لأنجلترا . وأجرى حوادث مسرحياته في أنجلترا وأيطاليا وأنحاء العالم .

ومثله كريستوفر مارلو Marlow (١٥٦٤ / ١٥٩٣) وبين چونسون Jonson (١٥٧٣ / ١٦٣٧) . وأما إدموند سبنسر Spenser (١٥٥٢ / ١٥٩٩) فربما كان أعظمهم جميعاً من ناحية الثقافة والمعرفة . فقد درس أفلاطون وأرسطو . وتأثر بالشاعرين الأيطاليين تاسو وأريستو . وبدبلوماسي الرينسانس كاستليوني . ونقل عنهم جميعاً مواضيع كاملة.

تواريخ في تطور الرينسانس
في شمال وغربي أوربا

١٤٤١	وفاة الرسام الهولندي ڤان أيك .
١٥١٧	لوثر يعلق مواده على باب كاتدرائية ويتنبرج .
١٥٢٨	وفاة الرسام الألماني ديرار .
١٥٣٠	أقامة الكوليج ديه فرانس في باريس .
١٥٣٥	أعدام توماس مور .
١٥٣٦	وفاة إيرازموس ، وليفيفر دايتابل .
١٥٤٣	وفاة الرسام هولبين « الصغير ».
١٥٤٧	وفاة ملكا فرنسا وأنجلترا : فرانسيس الأول وهنري الثامن.
١٥٤٩	وفاة مرجريت ناڤار .
١٥٥٣	وفاة الأديب الفرنسي رابليه .
١٥٦٠	وفاة ميلانشتون .
١٥٦٤	وفاة كالڤين .

١٥٧٢ مذبحة سانت بارتولوميو في فرنسا .

١٥٨٥ وفاة شاعر البلياد رونسار .

١٥٨٩ صدور قانون التسامح « نانت » في فرنسا .

١٥٩٢ وفاة الأديب الفرنسي مونتين .

١٦١٤ وفاة الرسام اليوناني / الأسباني ألجريكو .

١٦١٦ وفاة سيرفانتيس ، وشكسبير .

١٦٤٦ وفاة الرسام الهولندي روبنز .

١٦٦٠ وفاة الرسام الأسباني ڤيلا سكويز .

١٦٦٩ وفاة الفنان الهولندي رامبرانت .

سلسلة «أعلام ومشاهير»

بأشراف الدكتور رءوف سلامة موسى

عبد الرحمن شكري
زكي أبو شادي
ناجي
طه حسين
علي عبد الرازق
زكي مبارك
مي
جبران
شكسبير
دستوفسكي
هوجو
أوسكار وايلد
نيتشه
ويلز
همنجواي
بروست
سارتر
أورويل
كامي
تولستوي
بودلير

د. هـ. لورانس
فرجينيا ورلف
فولتير
روسو
إبسن
ديكنز
جويس
شو
صاند
جوته
داروين
فرويد
الرينسانس
الثورة الأصلاحية الأنجليزية
ثورة التحرير الأمريكية
الثورة الفرنسية
الثورة الروسية الكبرى
ديكارت
شوبنهور
هيجل
كانت

ماركس
مكيافيلي
جيفرسون
واشنجطون
أتاتورك
نابليون
هتلر
چنكيز خان
هنري الثامن
لورانس العرب
كليوبطرة
روكسيلانا
السلطانة الفرنسية
مدام ديه برمبادور
راسبوتين
كولمبوس
دافنشي
فان جوخ
بيكاسو
تولوز لوتريه
رامبرانت
ماتيس

وجه الغلاف : لورانزو المعظم المديتشي الفلورانسي

ظهر الغلاف   فيدريكو مونتفليترو لديلافرانسيسكا

المستقبل بالفجالة والإسكندرية
ومؤسسة المعارف ببيروت



